من بلاغة القرآن الكريم

في ذكر جنة الدنيا (البساتين)

بين اقتضاء المقام ودلالة النظم

إعداد

أ.م / زينب كمال سليم محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات بني سويف

من بلاغة القرآن الكريم في ذكر جنة الدنيا (البساتين)

بين اقتضاء المقام ودلالة النظم

زينب كمال سليم محمد

أستاذ مساعد بقسم: البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بني سويف، جامعة: الأزهر – محافظة بني سويف، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: zainabmohamed250.el@azhar.edu.eg

Masa5kamal@gmail.com

ملخص البحث

يتناول هذا البحث شيئا من بلاغة الذكر الحكيم في المواضع التي ذُكر فيها لفظة الجنة بمعنى (البستان).

تحت عنوان: من بلاغة القرآن الكريم في ذكر جنة الدنيا (البساتين) بين اقتضاء المقام ودلالة النظم؛ وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من: مقدمة، وتمهيد، ومباحث أربعة، وخاتمة.

–المقدمة: اشتملت على عنوان البحث، وسبب اختياري له، والخطة الموضوعة لدراسته.

التمهيد: تناولت فيه معنى لفظة الجنة، والمواضع التي ذُكرت فيها بمعنى (البستان) في الذكر الحكيم.

المباحث الأربعة:

المبحث الأول: ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام التذكير بنعم الله –عز وجل–.

المبحث الثاني: ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام تكذيب المشركين للرسل –عليهم السلام–.

المبحث الثالث: ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام العقاب.

المبحث الرابع: مطابقة المقال لمقتضى الحال في توظيف الدلالات.

ثم ذيلت بخاتمة تضمنت أهم ما توصل إليه البحث من نتائج منها على سبيل المثال:

جمع لفظة الجنة هو السمة الغالبة في المواضع التي تحث على التدبر في آيات الله الكونية؛ بيانا لوفرة نعم الله –تعالى– على عباده.

أظهر الطباق في مواضع شتى القدرة المطلقة لله –عز وجل–؛ حيث يخلق الشيء ونقيضه، ويمنح ويسلب؛ مما يبرز قدرته على إنشاء الخلق من عدم، وعلى البعث والنشر.

الكلمات المفتاحية: بلاغة – القرآن الكريم – الجنة – البساتين –المقام – النظم.

From the rhetoric of the Holy Qur'an in mentioning the Paradise of the World (The Gardens)

Between the requirement of the maqam and the indication of the Context

Zainab Kamal Seliem Mohamed

Assistant Professor, Department: Rhetoric and Criticism, Faculty: Islamic and Arabic Studies for Girls of Beni Suef, University of: Al-Azhar - Beni Suef Governorate, Arab Republic of Egypt.

Email: zainabmohamed250.el@azhar.edu.eg

Abstract

The research deals with a the rhetoric of the Holy Qur'an in mentioning the Paradise of the World (The Gardens)

The nature of the research required that it consist of: an introduction, a entrance, four Chapters, and a conclusion.

Introduction: It included the title of the research, the reason for choosing it, and the plan set for studying it.

The entrance: I dealt with it the meaning of the word Paradise, and the places in which it was mentioned with the meaning of (the garden) in the Holy Qur'an.

The first topic: Mentioning the Paradise of the World (The Gardens) as a reminder of the blessings of God - the Almighty -.

The second topic: Mentioning the Paradise of the World (The Gardens) in the position of the polytheists denying the Messengers - peace be upon them -.

The third topic: Mentioning the Paradise of the World (The Gardens) in the maqam of punishment.

The fourth topic: matching the article to what is required in the employment of semantics.

Then it was appended with a conclusion that included the most important findings of the research, including, for example:

The plural of the word “Paradise” is the dominant feature in the places that urge contemplation of the cosmic verses of God, as an indication of the abundance of the blessings of God - the Most High - on His servants.

the- antonym of words (tebeaq) demonstrated in various places the absolute power of God - the Almighty - as he creates a thing and its opposite, grants and takes away, which highlights his ability to create creation from nothing, and to resurrect .

key words: rhetoric- The Holy Quran - Paradise - the gardens -maqam -the Context

المقدمة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ؛؛؛

يتناول هذا البحث شيئا من بلاغة الذكر الحكيم في المواضع التي ذُكر فيها لفظة الجنة بمعنى (البستان).

ويرجع سر اختياري لموضوع البحث:

إلى أني لاحظت أن لفظة البستان أو الحديقة لم يرد ذكرهما في القرآن الكريم ،وقد ورد ذكر لفظة (الحدائق) بمعنى البستان في قوله تعالى: "**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**"سورة النمل٦٠ ،وقوله تعالى: "**وَحَدَائِقَ غُلْبًا**" سورة عبس ٣٠ ، وبمعنى جنة الدار الآخرة في قوله تعالى: "**حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا**" سورة النبأ٣٢ ، وعلى هذا فالأعم الأغلب في التعبير عن معنى البستان في الذكر الحكيم أتى بلفظة (الجنة)،ثم إنها ذُكرت بذاك المعنى في مواضع كثيرة لأغراض متعددة حسب ما تقتضيه أحوال المخاطبين ؛ فحاولت الإبانة عن أسرار المقال البلاغية ،وربطها بالمقام الذي سيقت من أجله بالمنهج التحليلي البياني .

وقد جرت خطة البحث في مقدمة وتمهيد، ومباحث أربعة ، وخاتمة :

المقدمة: ذكرت فيها عنوان الموضوع، وسبب اختياري له، والخطة الموضوعة لدراسته.

التمهيد: تناولت فيه معنى لفظة الجنة، والمواضع التي ذُكرت فيها بمعنى (البستان) في الذكر الحكيم.

المباحث الأربعة:

المبحث الأول: ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام التذكير بنعم الله –عز وجل–.

المبحث الثاني : ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام تكذيب المشركين للرسل –عليهم السلام–.

المبحث الثالث : ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام العقاب.

المبحث الرابع: مطابقة المقال لمقتضى الحال في توظيف الدلالات.

هذا، والله أسأل التوفيق والسداد إنه على ذلك قدير .

التمهيد

- **معنى لفظة الجنة:**

الجنة: **(الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جِنان ،ويقال للنخل وغيرها ، وقيل: لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب ،فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة)**(١)

"وَالْجَنَّةُ مَكَانٌ مِنَ الْأَرْضِ ذُو شَجَرٍ كَثِيرٍ بِحَيْثُ يُجَنُّ أَيْ يستر الْكَائِن فِيهِ ،فَاسْمُهَا مُشْتَقٌّ مِنْ جَنَّ إِذَا سَتَرَ، وَأَكْثَرُ مَا تُطْلَقُ الْجَنَّةُ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى ذَاتِ الشَّجَرِ الْمُثْمِرِ الْمُخْتَلِفِ الْأَصْنَافِ، فَأَمَّا مَا كَانَ مَغْرُوسًا نَخِيلًا بَحْتًا فَإِنَّمَا يُسَمَّى حَائِطًا ، وَالْمُشْتَهِرُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ مِنَ الشَّجَرِ الْمُثْمِرِ غَيْرِ النَّخِيلِ هُوَ الْكَرْمُ وَثَمَرُهُ الْعِنَبُ أَشْهَرُ الثِّمَارِ فِي بِلَادِهِمْ بَعْدَ التَّمْرِ، فَقَدْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَالطَّائِفِ ، وَمِنْ ثِمَارِهِمُ الرُّمَّانُ، فَإِنْ كَانَ النَّخْلُ مَعَهَا قِيلَ لَهَا جَنَّةٌ أَيْضًا."(٢)

- **الآيات الكريمات التي ذُكرت فيها لفظة الجنة ومشتقاتها بمعنى (البستان) في القرآن الكريم:**

قوله تعالى:

- **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**(٣)

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (جنن) ط١ دار المعارف بالقاهرة د.ت

(٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد للإمام محمد الطاهر بن عاشور التونسي ٥٣/٣ ط١ الدار التونسية للنشر بتونس ١٩٨٤م

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٥

- "أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"(١)
- "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(٢)
- وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"(٣)
- "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٤)"
- "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا"(٥)

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٦

(٢) سورة الأنعام آية ٩٩

(٣) سورة الأنعام آية ١٤١

(٤) سورة الرعد آية٤

(٥) سورة الإسراء ٩٠: ٩١

- "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا"(١)

- "وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ "(٢)

(١) سورة الكهف الآيات ٣٢: ٤٣

(٢) سورة المؤمنون ١٨: ١٩

- "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا"(١)
- "فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ"(٢)
- "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"(٣)
- "أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ"(٤)
- "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ

(١) سورة الفرقان ٧: ٨

(٢) سورة الشعراء ٥٧: ٥٩

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٣١: ١٣٥

(٤) سورة الشعراء الآيات ١٤٦: ١٥٠

بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ "(١)

- "وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ"(٢)
- "كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ"(٣)
- "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ"(٤)
- "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ

(١) سورة سبأ الآيات ١٥: ١٩

(٢) سورة يس الآيات (٣٣: ٣٥)

(٣) سورة الدخان ٢٥: ٢٨

(٤) سورة ق ٩: ١١

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ "(١)

- "فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا"(٢)

(١) سورة القلم الآيات ١٧: ٣٢

(٢) سورة نوح الآية ١٠: ١٢

المبحث الأول:

ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام التذكير بنعم الله –عز وجل–

ذُكرت الجنة –يراد بها البستان– في مقام التذكير بنعم الله تعالى؛ دعوة للتدبر في آيات الله الكونية للإيمان بالله تعالى ،وأداء حق الله تعالى فيها ،في ستة مواضع هي: ١. قوله تعالى:"**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**"(١)

٢. قال تعالى: "**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**"(٢)

٣. قول الله تعالى:"**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**"(٣)

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٥

(٢) سورة الأنعام آية ٩٩

(٣) سورة الأنعام آية ١٤١

٤. قوله تعالى:"**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١)**"

٥. قوله تعالى:"**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** "(٢)

٦. قال تعالى: "**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**"(٣)

الموضع الأول

قوله تعالى:

"**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**"(٤)

أي؛ مثل الخير والثواب العائد على الذين يتصدقون بأموالهم طاعة لله ، وتثبيتا لأنفسهم على تلك العبادة العظيمة ، كمثل بستان بمرتفع من الأرض

(١) سورة الرعد آية٤

(٢) سورة المؤمنون ١٨: ١٩

(٣) سورة يس الآيات (٣٣: ٣٥)

(٤) سورة البقرة آية ٢٦٥

أصابه مطر غزير ؛ فتضاعف ثمره ، أو مطر خفيف ؛فأثمر ، فهو في الحالتين خير وفير لصاحبه.

الواو في قوله تعالى: " وَمَثَلُ" عاطفة عطفت ذلك المثل على مثل سابق ضربه الله –عز وجل– لمن ينفق ماله رئاء الناس في قوله تعالى:**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**"(١) ؛ليوضح البون الشاسع بين من أنفق رياء ومن أنفق ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وهو من طرق البيان ؛ حيث ذكر النقيض ، وبضدها الأشياء تتضح وتتمكن في الذهن ، فضرب المثل في الآيتين الكريمتين ؛للمقارنة بين حالتين من الإنفاق إحداهما ابتغاء مرضاة الله والأخرى ابتغاء مرضاة الناس ، فمن أنفق رياء ضل وذل وعاد خالي الوفاض ، ومن أنفق في سبيل الله أفلح في الدارين.

فقد شبَّه الله –عز وجل– هيئة الذين ينفقون أموالهم ويبتغون بها وجه الله ومرضاته، بهيئة البستان في مكان مرتفع أصابه أحد أمرين : إما وابل من السماء ؛ فأثمر وأينع وتضاعف نتاجه ، أو طل وهو المطر الخفيف فكفاه سقياه ؛فأثمر وأينع ، فهو في كلتا الحالتين يؤتي ثماره.

ووجه الشبه: هيئة مكونة من تضاعف الجزاء الطيب والأثر الحسن نتيجة لتقدم حصول أسباب الخير.

(١) سورة البقرة آية ٢٦٤

وبلاغة ضرب المثل بالبستان تكمن في تعظيم قيمة الإنفاق في سبيل الله ، وبيان عظيم الأجر العائد على المنفِق ، ليس فقط بل سعادته بذلك الأجر العظيم يوم يلقاه ؛ وذلك لما عُلم من تعلق أصحاب الزروع والبساتين بها ، وتعهدهم لها ،وسرورهم لعائد نتاجها إذا أثمرت ،وإذا تضاعف نتاجها خاصة.

وبلاغة المثل تظهر ساطعة في كل لفظة نظمت في عقد التراكيب ؛ بحيث افتتح المولى –جل علاه– الآية بلفظ المثل قائلا –جل شأنه–: "**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ**" ، والاستهلال بضرب المثل له شأن عظيم في تنبيه السامع وجذب لبه ؛ لتدبر المعنى والإمعان فيه ، ولذا يقول الله –عز وجل– في موضع آخر: "**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**"(١) ،فـ"**التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ،أو برزت هي باختصار في معرضه ،ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ؛كساها أبهة ،وكسبها منقبة ،ورفع من أقدارها ،وشبَّ من نارها ،وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ...وإن كان وعظا كان أشفى للصدر ،وأدعى إلى الفكر ،وأبلغ في التنبيه والزجر ،وأجدر بأن يُجلِّي الغياية ،ويُبصِّر الغاية**"(٢) ثم إن فيه تنبيها لمفارقة ربما تغيب عن الناس ؛ وهي إن العبرة ليست بالإنفاق مجردا عن شعور صاحبه وبغيته ، ولكن العبرة في الإنفاق مقترنا بالإيمان، وبشعور صاحبه بحاجة المستفيد من التصدق ،وبغيته ثواب الله –عز وجل– لا ثناء البشر.

---

(١) العنكبوت آية ٤٣

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني –تعليق:أبو فهر محمود محمد شاكر ١١٥: ١١٦ ط١ دار المدني بجدة ١٤١٢هـ ١٩٩١م

والتعريف بالموصولية في لفظ (الذين) يفيد تعظيم شأنهم؛ حيث يتكرر إنفاقهم في سبيل الله، ينبع هذا التكرار من الفعل المضارع (يُنْفِقُونَ).

وفي إضافة الأموال إليهم في قوله:" أَمْوَالَهُمُ " دلالة على أن تلك الأموال ملك خالص لهم، لا يعملون عليها ولا هي من أموال غيرهم؛ لأن إنفاق الإنسان من ماله للمحتاجين أشد على نفسه من إنفاقه من أموال غيره.

ولما كانت تلك أموالهم تخرج بطيب نفوسهم احترس من كونها تخرج للرياء بقوله تعالى:"**ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ**"، فجعل خروجها عن طيب نفس صاحبها؛ ابتغاء وجه الله لا ليقال: إنه تصدق؛ وليوضح الأثر المترتب على التصدق ابتغاء مرضاة الله، وكيف يفوز صاحبه بمضاعفة الخير في الدنيا والثواب في الآخرة، بخلاف من أنفق "مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ" فعاد كـ"**صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا**" ، فالاحتراس هنا إرشاد لمن يعتبر ، وتنبيه لمن سولت له نفسه حب الشهرة بالإنفاق.

ولم يكتف الذكر الحكيم بقوله تعالى:"**ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ**" بل عطف عليه قوله تعالى: "**وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**" حيث استعار تثبيت الشيء وتمكينه لدعم النفس باليقين الذي يكبح شهواتها ويمنعها من التردد ؛ لبيان أنهم يدعمون أنفسهم بتثبيتها على جانب الخير ، فهم ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله بنفس راضية قانعة غير مترددة ، "**فَإِنَّ إِرَاضَةَ النَّفْسِ عَلَى فِعْلِ مَا يَشُقُّ عَلَيْهَا لَهَا أَثَرٌ فِي رُسُوخِ الْأَعْمَالِ حَتَّى تَعْتَادَ الْفَضَائِلَ وَتَصِيرَ لَهَا دَيْدَنًا ، وَإِنْفَاقُ الْمَالِ مِنْ أَعْظَمِ مَا تَرَسُخُ بِهِ الطَّاعَةُ فِي النَّفْسِ لِأَنَّ الْمَالَ لَيْسَ أَمْرًا هَيِّنًا عَلَى النَّفْسِ**"(١)

(١) التحرير والتنوير ٥١/٣

ثم أطنب بتكرار ذكر (المثل) تارة أخرى فقال:" **كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ**"، بدلا من قوله: كجنة بربوة؛ لمزيد من تأكيد التنبيه على المعنى الواقع بعد لفظة المثل ولفت الانتباه إليه؛ إذ فيه المغزى، وبه يتبين الفارق بين حالة سبق ذكرها من الإنفاق رياء وتلك الحالة التي نحن بصددها وهي الإنفاق في سبيل الله ؛ابتغاء مرضاة الله.

ونكَّر لفظة (جنة) والمراد بالجنة هنا البستان؛ لتفخيم أمرها وبيان أن شأنها عظيم بحكم ما سيأتي بعدها من الوصف، وهو قوله تعالى: " بِرَبْوَةٍ"، والربوة عند الجمهور: "**المكان المرتفع المستوي من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار.**"(١)

"**وَتَخْصِيصُ الْجَنَّةِ بِأَنَّهَا فِي رَبْوَةٍ لِأَنَّ أَشْجَارَ الرُّبَى تَكُونُ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَأَزْكَى ثَمَرًا فَكَانَ لِهَذَا الْقَيْدِ فَائِدَتَانِ إِحْدَاهُمَا قُوَّةُ وَجْهِ الشَّبَهِ كَمَا أَفَادَهُ قَوْلُ ضِعْفَيْنِ، وَالثَّانِيَةُ تَحْسِينُ الْمُشَبَّهِ بِهِ الرَّاجِعُ إِلَى تَحْسِينِ الْمُشَبَّهِ فِي تَخَيُّلِ السَّامِعِ.**"(٢)

ربما لأن وجودها في مرتفع من الأرض يجعلها تأخذ حقها من ضوء الشمس اللازم لعملية البناء الضوئي، كما أن وجودها في مرتفع من الأرض يجعلها تأخذ وفرتها من مياه الأمطار أولا قبل مثيلاتها في المنخفض، ويجعلها أيضا تتخلص من الماء الزائد عن حاجتها بانحداره إلى أسفل ؛ فقد توفر لها من الميزات ما يجعلها أفضل من غيرها من البساتين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق : سامي بن محمد السلامة ٦٩٦/١ ط٢ دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ –١٩٩٩م

(٢) التحرير والتنوير ٥٣/٣

وعبَّر بالماضي في قوله: "**أَصَابَهَا وَابِلٌ**" ، وقوله تعالى: "**فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**"؛ لتحقق وقوع إصابة الوابل لها ، وتحقق إتيانها الأُكل ، ويعني بقوله تعالى: " **أَصَابَهَا وَابِلٌ" : المطر الشديد ، فآتت أكلها ؛أي ثمرتها "ضعفين" ؛أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان"(١)**

ونكَّر لفظة (وابل)؛ للتفخيم من شأن الوابل الذي أصابها؛ مما يعني أنها أخذت حقها من الري، وعطف عليه قوله تعالى:"**فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**" بالفاء؛ ليبين سرعة تحقق الأمل المرجو منها، وكأنها أثمرت قبل مثيلاتها، ولا يخفى أن ظهور الثمر باكرا يعود على أصحابه بالخير الوفير؛ إذ يصبح الغارس بذلك أول من ينتفع، وأول من يبيع، وأول من يربح؛ مما يعود بالتمثيل إلى إيضاح ما في الإنفاق في سبيل الله ولوجه الله من الخير الوفير السابق الباكر.

"فإن لم يصبها وابل فطل" قال الضحاك: هو الرذاذ، وهو اللين من المطر؛ أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدا؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأياما كان فهو كفايتها."(٢)

وهي جملة شرطية تبين أن البستان منتفِع في كلتا الحالتين أصابه وابل أو طل، وأصحابه في نفع في كلتيهما، وكأنه بذلك يوضح أن المنفق في سبيل الله ينتفع بإنفاقه على كل حال في الدنيا بالنماء والبركة والشفاء من الداء ، وفي الآخرة بالثواب الجزيل.

(١) تفسير ابن كثير ٦٩٦/١

(٢) السابق ٦٩٦/١

والمشبه به: الهيئة الواقعة بعد لفظة المثل صورة حسية وهي صورة الجنة بالربوة أصابها وابل؛ فآتت أكلها ضعفين، أو طل فأثمرت وآتت النتيجة المرجوة منها ، وضَرْب المثل بالصورة الحسية أمكن في الإدراك ؛ إذ" **صَار ذَلِك الْأَمر لَهَا بذلك الْمثل كالمعاينة ،كَالَّذي ينظر فِي الْمرْآة ؛ فيبصر فِيهَا وَجهه ويبصر بهَا من خَلفه لِأَن ذَلِك الْمثل قد عاينه ببصر الرَّأْس ،فَإِذا عاين هَذَا أدْرك ذَلِك الَّذِي غَابَ عَنهُ بِهَذَا ؛ فسكنت النَّفس وانقادت للقلب"(١)**

وفي ختم الآية الكريمة بصفة البصر في قوله تعالى:"**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**" دون غيرها من العلم أو الخبرة فلم يقل (عليم) أو (خبير) ؛ لتتناسب تلك الخاتمة مع الصورة البيانية الواردة في الآية الكريمة ، والتي هي صورة محسوسة مشاهدة ، وهي صورة البستان في المكان المرتفع يناله قسطا وفيرا من مقومات الإنبات والإثمار ؛ فيؤتي أكله سابقا ومضاعفا ، فإذا كنا نحن البشر نرى تلك الصورة البديعة التي يرجوها أصحاب البساتين جميعا ، والتي ضُربت مثلا للإنفاق في سبيل الله دون رياء ، فالله –عز وجل– يرى ما لا نراه نحن من هيئات المنفقين وأحوالهم ، فمنهم من ينفق رغم فاقته ، ومنهم من ينفق زيادة عن حاجته ، ومنهم من ينفق رياء ، ومنهم من ينفق ابتغاء مرضاة الله ، والله بصير بهم جميعا ، وبما يعملون .

(١) الأمثال من الكتاب والسنة للإمام محمد بن علي الترمذي –تحقيق: د. السيد الجميلي ص١٦ط١ دار ابن زيدون–بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

الموضع الثاني:

قال تعالى: "**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**"(١)

ذُكرت الآية الكريمة في معرض التذكير بنعم الله –تعالى– بداية من ذكر آلاء الله –عز وجل– في السماء ، قال –تعالى–:" **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**"(٢) ، ثم فيمن يحيون على الأرض يهتدون بتلك النجوم في السماء ؛ وهم البشر قال –تعالى–:" **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**"(٣) ، ثم في الرابط بين السماء والأرض الذي جعل منه كل شيء حي ؛ وهو الماء ينزل من السماء ؛ فتنبت به الجنات والزروع ، قال تعالى: "**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**".

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٩

(٢) سورة الأنعام آية ٩٧

(٣) سورة الأنعام آية ٩٨

استخدم الذكر الحكيم الموصول (الذي)؛ للتعظيم، وتعريف الطرفين "**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ**" يفيد قصر الإنزال على الله –سبحانه وتعالى– فهو المنعم بالمطر لا يقدر على ذلك غيره.

وأتى بالماضي (أنزل)؛ ليفيد تحقق وقوع الفعل، وجعل الإنزال من السماء وإنما يكون من السحاب على سبيل المجاز المرسل؛ لعلاقة المجاورة، وفيه شيء من بيان قدرة الله –عز وجل – إذ ينزل المطر من أي جهة من السماء قدَّر الله تعالى له ذلك.

والتفت من ضمير الغيبة في قوله تعالى: "**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ**" إلى التكلم مع التعظيم بـ(نا) في قوله تعالى: "**فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**"؛ لبيان عِظم الأمر الذي يخرج عن حيلة البشر إلى قدرة الخالق؛ وهو إخراج مختلف الصنوف والطعوم والأشكال من النباتات إثر ريها بماء واحد.

والعطف بالفاء في قوله تعالى: "**فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**" يفيد سرعة التعقيب فور نزول المطر يبدأ النبات في الظهور، وذلك من رحمة الله بعباده.

وفي إضافة لفظة (نبات) للفظة (كل) المضافة إلى لفظة (شيء) في قوله تعالى:" **نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**"؛ دلالة على قدرة الله –عز وجل– المطلقة؛ فالماء واحد والنبات شتى ، وبه استقصاء لأنواع النبات جميعها ، وبيان أنها مع اختلافها تسقى بماء واحد ، ولا يتأتى هذا المعنى لو قال : فأخرجنا به النبات.

وقوله تعالى: "**فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا**" تفصيل بعد إجمال؛ لتوضيح شيء من تفاصيل قدرة الله –عز وجل– مع تكرار الفعل

الماضي في قوله: "فَأَخْرَجْنَا"؛ لتقرير تلك القدرة المطلقة وتأكيدها ، بينما استخدم المضارع (نُخْرِجُ) ؛لبيان تكرار الحدوث مع استحضار المشهد الذي يدل على عظمة الخالق –جل شأنه– ، فالأمر لا يقف عند حد إخراج الخضر ،وإنما يتجلى الإعجاز في إنبات تلك الحبوب المتراكبة في سنابلها.

وذكر –جل شأنه– قنوان النخل الدانية خاصة في قوله تعالى: "**وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ(١) دَانِيَةٌ**"؛ لأنه في معرض تعداد النعم وبيان قدرة الخالق، وتتجلى تلك القدرة في دنو ثمر النخل في بعض أنواعه ؛ إذ اعتادت العين على رؤية ثماره بعيدة ، يقول صاحب الكشاف: "**ذَكَر القريبة وترك ذِكر البعيدة : لأنّ النعمة فيها أظهر وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة**"(٢)

"**وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** " **عطف على "نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ"؛ أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب**"(٣)

ذكر الجنات؛ دعوة للاعتبار والاستبصار، فقد أنبت الله –عز وجل– الخضر مما لا ساق له ليس فقط ولكنه –جل شأنه– أنبت بالماء نفسه

---

(١) القنو: العِذق بما فيه من الرُّطب، (ج): أقْناء وقِنوان / المعجم الوسيط – قام بإخراجه / إبراهيم أنيس – عبد الحليم منتصر – عطية الصوالحي – محمد خلف الله مادة (قنو) ط٢ دار المعارف ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري –راجعه: يوسف الحمادي ٥٠/٢ ط١ مكتبة مصر ١٤٣١هـ ٢٠١٠م

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي –ضبطه: السيد محمود شكري الألوسي ٢٣٩/٧ ط١ دار إحياء التراث العربي ببيروت–لبنان د.ت

الأشجار وبساتين العنب والزيتون والرمان ؛ فالماء واحد والناتج نجم وشجر ،وذاك من أسباب التفكر والتدبر في آيات الله في أرضه وسمائه.

ولذا ختم الآية الكريمة بقوله تعالى:"**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**" أي:"**انظروا إلى ثمره إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا ضعيفا لا يكاد يُنتفع به، وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئا جامعا لمنافعٍ وملاذٍ؛ نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مُقدِّرة ومُدبره وناقله من حال إلى حال.**"(١)

فالأمر في قوله تعالى: "انظروا" للنصح والإرشاد إلى وجوب النظر ؛للاعتبار ، وخصَّ الثمر في قوله تعالى: "**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**" لأن به تتم الفائدة ،ويتجلى الإعجاز ،وتتضح القدرة في أبهى صورها ؛ إذ صارت الحبة اليابسة أو العود الجاف نضرا مورقا مثمرا فهذه الحال أدعى للنظر والاعتبار ، ولعظم تلك الحال أشار إليها بالبعيد (ذلكم) ؛تعظيما وتفخيما لذاك المشهد المستحق للتدبر، ومن هنا أكد القول بـ(إن) واللام فقال –جل شأنه– : "**إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**" فالخبر إنكاري مؤكد بأكثر من أداة تأكيد مع أن أمر اعتبار المؤمنين شيء بدهي لا يستدعي الإنكار ، ولكن لما كان اعتياد النعمة وإلفها تبعد الرائي عن الاعتبار ، وتنسيه شكر النعمة حتى إنه من شدة إلفها ربما تمر عليه دون أن تحرك في نفسه أدنى شعور ؛ أتى بالخبر الإنكاري ؛ ليؤكد أن أخذ العبرة والعظة وتدبر الآيات المرئية ليس من صفات الناظرين كلهم ،وإنما هو من صفات المؤمنين.

(١) السابق ٢٣٨/٧

الموضع الثالث

من ذكر جنة الدنيا (البستان) في معرض التذكير بنعم الله –تعالى–؛ للتنبيه على أداء الحق فيها :قول الله تعالى:

"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"(١)

حثَّ الذكر الحكيم على أداء حق المساكين من الزروع والثمار في الآية الكريمة؛ فإنها وإن تك ملكا لصاحبها هي ملك لله –عز وجل– قبله؛ هو الذي أنشأها وسخر لها ما يروي ظمأها؛ لينعم بها صاحبها، ولا ينسى حق الله فيها.

التعريف بالموصولوية (الذي) بعد ذكر الضمير (هو) في قوله تعالى: "**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ**"؛ للتعظيم فهو الخالق المُنعِم، وفيه دلالة على كمال قدرة الله –عز وجل– ، فالله هو المبدع الخالق للجنات معروشات وغير معروشات لا خالق غيره–جل علاه ،وتبدو قيمة استخدام الموصول هنا في أنه لا يتوصل إلى وصف المعارف بالجمل إلا من خلاله ؛ لما هو متعارف عليه من أن الجمل بعد المعارف أحوال لا صفات ، وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر – رحمه الله –:

(١) سورة الأنعام آية ١٤١

" إنما اجتُلِب حتى إذا كان قد عُرِف رجل بقصة وأمر جرى له ، فتخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع ، ثم أريد القصد إليه ذُكِر (الَّذي)"(١)

واستخدم الفعل (أنشأ) دون غيره من الأفعال التي تدل على الخلق والوجود –والله أعلم بمراده–؛ لأن الإنشاء إلى جانب أنه يدل على الإحداث والوجود يدل أيضا على السمو والارتفاع بالشيء؛ فـ"**النون والشين والهمزة أصل صحيح يدل على ارتفاع في الشيء وسمو، ونشأ السحاب ارتفع ، ونشأه الله رفعه(٢)**" ، والبستان يُنبته الله –عز وجل– نباتا ثم يرفعه أشجارا ؛ فناسب التعبير بالفعل (أنشأ) المعنى المراد.

ونكَّر لفظة (جنات) ؛ لتفخيم شأنها ، "**مَعْرُوشاتٍ مرفوعات عن الأرض ، «وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ» منبسطة على وجه الأرض، وذلك أن أشجار العنب منه ما هو منبسط على الأرض ... ومنه ما هو مرتفع على الأعواد كهيئة السقف ويسمى عريشا، هذا على تخصيص هذه الجنّات في الآية على العنب فقط ، أما إذا أطلق لفظ الجنات فإن المعروش منها كل ما انبسط على وجه الأرض وانتشر ؛كالكرم والقرع والبطيخ والقثاء وشبهها من الأزهار غير المثمرة، وغير المعروش كل ما قام على ساق ونسق ؛ كالنخل والموز والتفاح وأشباهه، والزروع كالحنطة والذرة والرز وغيرها من**

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر ص٢٠٠ط٣ مطبعة المدني ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

(٢) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس – تحقيق: عبد السلام محمد هارون ٥٢٨/٥ ط١ دار الفكر للطباعة والنشر د.ت

النبات غير المثمر أيضا، ولكن قوله تعالى بعد ذلك «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ» يؤيد الأول "(١)

وبين (معروشات –وغير معروشات) طباق السلب، والطباق هنا يوضح القدرة المطلقة لله –عز وجل– في الخلق والإبداع ، ويؤيدها العطف بعده في قوله تعالى:"**وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ**" ، وهي من عطف الخاص على العام إذا أريد بالمعروشات القائم على ساقه ،وغير المعروشات ما انبسط على وجه الأرض من الزروع.

وذِكر القيد (**إِذَا أَثْمَرَ**) في قوله تعالى: "**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ**" احتراس وتكميل؛ يوضح به أن إباحة الأكل من ثمره تبدأ من وقت الإثمار لا من وقت النضج، فلو أُكِل ثمره ولم ينضج بعد لم يأثم بذلك ، كما أجازت الأكل منها قبل إخراج الزكاة ، يقول الزمخشري في تفسيره:"**ما فائدة قوله إِذا أَثْمَرَ وقد عُلِم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه؟ قلت : لما أبيح لهم الأكل من ثمره قيل : إذا أثمر ، ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر ، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع**"(٢)

وبين (ثمره) و (أثمر) جناس اشتقاق يزين الألفاظ بنغم تنجذب له الأسماع.

"**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** "«**زكاته التي أوجبها الله عليكم وبينها حضرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – «يَوْمَ حَصادِهِ» وبعد تصفيته وجفافه ، وقد آذنت هذه الآية بجواز الأكل من تلك قبل إعطاء الزكاة ... وإن الزكاة**

بيان المعاني للعلامة عبد القادر ملا العاني١٤٦/٣ ط١ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٨٢هـ ١٩٦٥م

(٢) الكشاف ٧٢/٢

لا تجب إلا بعد الحصاد ؛حذرا من وقوع آفة سماوية أو أرضية على الحبوب والأثمار فيتضرر بها"(١)

والأمر في (**آتوا**) للوجوب على حقيقته، والمراد بالحق إما الزكاة لمن قال: إن الآية مدنية نزلت بعد فرض الزكاة ، أو الصدقة لمن قال إن الآية مكية نزلت قبل فرض الزكاة (٢)

والنهي في قوله تعالى: "**وَلَا تُسْرِفُوا**" على حقيقته "**أي لا تتجاوزوا الحد؛ فتبسطوا أيديكم كل البسط في الإعطاء ...نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذَّ نخلا ، فقال: لا يأتين اليوم أحد إلا أطعمته ؛ فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ؛ فأنزل الله تعالى ذلك"(٣)**

وقوله تعالى: "**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**" خبر طلبي مؤكد بـ(إن) كأنه رد على سائل كيف يأمرنا الله تعالى بالصدقة ثم يرشدنا إلى عدم الإسراف فيها؟ ، ليجعل ذلك التذييل تنبيها لحفظ النفس باختصاصها بما يقيم صلبها ، وإرشادا للمتلقي إلى حفظ من يعول ؛باختصاصه بما يقيم صلبه ؛إذ إنهم أولى الناس بالصدقة ،فهم أقرب الأقربين ،وكفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول.

(١) بيان المعاني للعلامة عبد القادر ملا العاني ١٤٦/٣

(٢) ينظر الكشاف للزمخشري ٧٢/٢

(٣) روح المعاني ٣٧/٨

الموضع الرابع:

من ذكر الجنة بمعنى البستان في القرآن الكريم ؛ تذكيرا بآيات الله –عز وجل– ؛ للتدبر :قوله تعالى:

"وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١)"

بعدما ذكر الله –عز وجل– الآيات الكونية في خلق السماء في قوله تعالى:**"اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ"** أتبعها بذكر الآيات الكونية في خلق الأرض فقال –جل شأنه–: **"وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ "**

"وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ" أي: **"متقابلات متقاربات في الصّفة مختلفات في اللّون والإنبات؛ طيبة وسبخة ،رخوة وصلبة ،محجرة ومتربة ،حصية ورملية ، فمنها صالح للزرع ومنها للشجر، ومنها ما ينبت نوعا خاصا من الأشجار والخضر، وما ينبت ويثمر شيئا منها ولا ينبت في الأخرى (٢)"**

فنكَّر لفظة (قطع)؛ للتنويع، وبلاغة **التنكير تبدو في:** وصف القطع بـ(متجاورات) ، فعلى الرغم من أنها تتجاور في المكان إلا أن طبيعتها

(١) سورة الرعد آية٤

(٢) بيان المعاني للعلامة عبد القادر ملا العاني ٦/٣٦-٣٧

تختلف ؛وبالتالي يختلف نتاجها ،وذلك من إبداع الخالق ورحمته بعباده ؛إذ قدَّر لهم من الطعوم أنواعا شتى.

و(من) الجارة في قوله تعالى: "**مِنْ أَعْنَابٍ**"لبيان الجنس(١) ، أي هذه الجنات من جنس الأعناب ، ونكَّر (جنات)؛ للتفخيم من شأنها ؛مما يعود على المعنى ببيان قدرة الله –عز وجل– في خلقه ، وهو ما يهب للعقل دعوة للتدبر والتفكر في آيات الله وإحقاق الحق بأن الله –عز وجل– هو الخالق المعبود الواحد الأحد.

وقوله تعالى:"**وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ**" معطوف على لفظة "جَنَّاتٌ" منكرة ؛ للتكثير ، وقدَّم جنات الأعناب على الزرع "**مع كونه عمود المعاش ؛ لما أن في صنعة الأعناب مما يبهر العقل ما لا يخفى ،ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة في ظروف رقيقة حتى أن منها شفافا لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى.**"(٢)

"**والصنوان جمع صِنْو كقِنوان وقِنْو وهي النخلةُ التي لها رأسان وأصلُها واحدٌ**"(٣) ، وفي قوله تعالى: "**صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ** " طباق السلب ، وتبدو بلاغة الطباق في بيان قدرة الله –عز وجل– وإبداعه في خلقه ؛إذ

(١) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي –تحقيق: د. فخر الدين قباوة – أ. محمد نديم فاضل ٣٠٩ ط١ دار الكتب العلمية ببيروت –لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

(٢) روح المعاني ١٠٢/١٣

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي ٥/٥ ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان د.ت

يخلق الشيء وضده ، فوجود الأضداد في الحياة الدنيا دليل قاطع على القدرة المطلقة لله –عز وجل–.

"يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"

بنى الفعل لما لم يسم فاعله في قوله تعالى:" يُسْقَى" ؛ لدعوة السامع إلى إعمال العقل فيمن يسقيه وكيف يسقيه ؛فيرفع نظره إلى السماء متأملا آيات الله الكونية في سمائه وأرضه وما بينهما ، فإذا تيقن أن مرده إلى الله وحده ذكر له دلالة أخرى على وحدانيته وهي قوله تعالى "**وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ**" ناسبا الفعل لذاته –جل شأنه– ومؤكدا أن السقيا منه وبقدرته ، وما ترتب عليها منه وبقدرته – عز شأنه–.

وأشار –جل شأنه– إلى تلك الدلالات بالبعيد (ذلك)؛ للتعظيم من شأنها ؛ففيها من العبرة والعظة ،وإدراك حقيقة نسبة هذا الكون لله –عز وجل– خلقا وإبداعا ما يكفي ويغني ذوي الألباب "**فإن من عقَل هذه الأحوالَ العجيبةَ لا يتلعثم في الجزم بأن مَن قدَر على إبداع هذه البدائعِ وخلقَ تلك الثمارَ المختلفة في الأشكال والألوان والطعومِ والروائحِ في تلك القِطع المتباينةِ المتجاورةِ ،وجعَلَها حدائقَ ذاتَ بهجةٍ قادرٌ على إعادة ما بدأه بل هو أهونُ"(١)**

وأكد قوله تعالى: "**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**" بـ(إن) واللام، لأن مثل تلك الدلالات لا يتيقنها إلا أصحاب العقول ، وفيه تعريض بكل من أشرك أو كفر بأنه ليس من ذوي الألباب.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي ٥/٥

الموضع الخامس:

قوله تعالى:"**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** "(١)

ذُكرت الجنة في الآية الكريمة بمعنى البستان في مقام التذكير بنعم الله تعالى ؛ للاعتبار والتدبر في إبداع خلق الله من الإنسان ، قال تعالى: "**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(٢)**" إلى السماء قال تعالى: "**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(٣)**" ثم الأرض وجناتها ، ثم الأنعام وخيراتها في قوله تعالى: "**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ"(٤)**

نكَّر الذكر الحكيم لفظة (ماء) في قوله تعالى:"**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ**"؛ **للتعظيم** من منافع ذلك الماء الذي يحيي الأرض ؛ فيخرج منها ما يقتات منه الإنسان وغيره ، وقوله تعالى: "**بِقَدَرٍ**" أي "**بمقدار ما يكفيهم**"(٥)، وهي احتراس(٦) تدفع توهم هطول الماء باستمرار مما قد يتسبب في الضرر لا النفع .

---

(١) سورة المؤمنون ١٨: ١٩

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٢

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٧

(٤) سورة المؤمنون الآية٢١

(٥) روح المعاني ١٨/١٨

(٦) الاحتراس: "أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه"/ المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني –صححه: أحمد عزو عناية ٤٩٨ ط١ دار إحياء التراث العربي ببيروت –لبنان ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م

واستخدم صيغة الماضي في قوله تعالى: "**فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ**"؛ لبيان تحقق ثبوته واستقراره في الأرض في العيون والآبار، واستدل بها المفسرون على أن ماء العيون والآبار أصله من مياه الأمطار لا من انقلاب البخار المحتبس من الأرض ماء كما زعم الفلاسفة.(١)

وجَعْله الماء ينزل من السماء على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المجاورة؛ دعوة للتدبر في تلك السماء ومنافعها فإنها من أعظم الأدلة على وحدانية الله –عز وجل– وقدرته.

وأكد قوله تعالى:" **وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** " بأكثر من مؤكد ؛للمبالغة في بيان قدرة الله –عز وجل– على إذهاب ذلك الماء بغوره في الأرض فلا يستطيعون له طلبا ،أو بوجه آخر يعلمه الله ،فتنكير لفظة (ذهاب)؛ للتكثير من تلك الطرق التي يقدر الله عليها ، وفي التفاسير(٢) هذه الآية أبلغ من قوله تعالى: "**قُل أَرَأيتمْ إنْ أصبَحَ ماؤكُم غورًا فمن يأتيكُم بماءٍ مَعِين**"(٣) لوجوه منها أنها على الجزم وآية سورة الملك على الفرض ، وأنها مؤكدة ، وأنها في مطلق الماء النازل من السماء وآية الملك في ماء مخصوص للقوم.

"**فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**"

(١) ينظر روح المعاني ١٨/١٨

(٢) ينظر الكشاف ١٦٠/٣ وروح المعاني ١٩/١٨

(٣) سورة الملك آية ٣٠

أتى الذكر الحكيم بلفظة الجنة مجموعة؛ للتكثير فالآية الكريمة في معرض التذكير بآلاء الله –تعالى– ، ومن عظيم نعمه أن تفضل علينا بتلك الجنات التي عليها معاش البشر وغيرهم ، واختص (النخيل والأعناب) كما اختصهم في آيات سابقات ؛ لعظيم فوائدهم ،"**ووُصِف النخيل والعنب بأن ثمرهما جامع بين أمرين: بأنه فاكهة يُتفكه بها ،وطعام يُؤكَل رطبا ويابسا ؛ رُطبا وتمرا وعنبا وزبيبا.**"(١)

وقدم الجار والمجرور (منها) على الفعل (تَأْكُلُونَ) ؛ تفخيما لمكانة الجنات ؛ لبيان بالغ عظيم المنة التي أنعم الله تعالى علينا بها ، والتي عليها معاشنا وقوت يومنا.

وأتى بالفعل في (تَأْكُلُونَ) على صيغة المضارع؛ ليبين تكرار الحدث اليومي الذي يدل على الحاجة المستمرة التي لا غنى عنها ؛مما يعود على (الجنات) ببيان عظيم قيمتها ،وعلى البشر بالتدبر في تلك النعم ،وعلى الخالق العظيم بتأكيد قدرته ووحدانيته.

(١) الكشاف للزمخشري ٣/١٦٠

الموضع السادس:

قال تعالى: **"وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ"(١)**

ذكر الله –عز وجل– إحدى دلائل قدرته؛ وهي الأرض الميتة الجدب يحييها؛ فيخرج منها الزروع ، وتنبت فيها الجنات ؛ دعوة للتدبر وشكر الخالق على عظيم منته.

ونكَّر الذكر الحكيم لفظة (آَيَةٌ)؛ للتفخيم من شأنها، فخلق الأرض الميتة في حد ذاته معجزة ، وإحياؤها معجزة أكبر.

"**وضمير الجمع (لهم) لكفار أهل مكة ومن يجري مجراهم في إنكار الحشر**"(٢) ؛ فإحياء الأرض الميتة دليل على الحَشْرِ والقدرة على بَعْث الأجساد.

واستخدم –جل شأنه– الفعل الماضي في: (أَحْيَيْنَاهَا –أَخْرَجْنَا – جَعَلْنَا – فَجَّرْنَا)؛ للدلالة على تحقق وقوع تلك الأفعال الدالة على القدرة المطلقة للخلق من العدم، والإحياء بعد الإماتة.

واستعار الميتة للأرض قبل الإنبات، والإحياء لها بعد الإنبات على سبيل الاستعارة التصريحية، وبينهما طباق، وتبدو بلاغة الاستعارة في إبراز قدرة الله –عز وجل– بتحويل الشيء إلى ضده من الإماتة إلى الإحياء وهو ما يبرهن على قدرة الله –جل علاه– على البعث والإحياء، إلى جانب نقل

(١) سورة يس الآيات (٣٣: ٣٥)

(٢) روح المعاني ٦/٢٣

صورة حية للمشهد قبل الإنبات وبعده؛ ليتضح الفارق العظيم بين صورة الأرض وهي جرداء ،وصورتها وهي ترف بالحياة وتنطق بالخير والجمال.

وتنكير لفظة (حبا) للتكثير، وهو من دلالات القدرة؛ إذ الأرض واحدة، والناتج كثير متنوع.

و (من) في قوله تعالى:"**فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**" للتبعيض، أي؛ من بعضه يأكلون، وذلك لأن من بعضه أيضا يقتات الحيوان والطير وبعض أجناس الحشرات، فكله ليس للبشر، ولكنهم يشتركون فيه مع غيرهم، فلهم بعضه وللمخلوقات الأخرى بعضه.

وقدَّم الجار والمجرور (مِنْهُ) على الفعل في (يَأْكُلُونَ)؛ للدلالة على عظم شأن المقدم ، فالضمير في (مِنْهُ) يعود على (الحب) الذي عليه قوام الحياة للإنس ، وكذا للطير وبعض أجناس الحيوان والحشرات ، وجميعها ينتفع بها الإنسان في طعامه أو في اكتمال دورة الحياة.

"**وامتن –عز وجل– في معرض الاستدلال على الحشر بجعل الجنات من النخيل والأعناب، والمراد بها الأشجار، ولم يمتن –عز وجل– بجعل ثمرات تلك الأشجار من التمر والعنب ... ؛ إعظاما للمنة ؛ لتضمن ذلك الامتنان بالثمار وغيرها من منافع تلك الأشجار... لاسيما النخيل**"(١)

والتنكير في لفظة (جنات)؛ للتفخيم من شأنها؛ بيانا لقدرة الله –عز وجل– في خلقه، وأنه أنشأ تلك الجنات ذات المنافع الجمة من ميت الأرض التي أحياها بقدرته كما سيحي الموتى بقدرته.

(١) السابق ٨/٢٣

ووصل بين قوله تعالى: "**وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**" وقوله تعالى: "**وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ**" ؛ للتوسط بين الكمالين ،فكلتاهما خبرية فعلية فعلاهما ماض ،وهو من محسنات الوصل ، وفيه دلالة على كمال قدرته ؛ بتوفير الأسباب اللازمة لعملية الإنبات ،وجمع لفظة (العيون) على الكثرة ؛دلالة على فيض عطائه وعظيم مننه علينا.

واستخدم الذكر الحكيم صيغة المضارع في الفعلين:(يَأْكُلُونَ –لِيَأْكُلُوا)؛ للدلالة على تجدد الفعل وتكراره المستمر ما دامت الحياة؛ فهو من أساسيات البقاء.

و (ما) في قوله تعالى: "**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**" **موصولة بمعنى (الذي) ، أي؛ "ليأكلوا من الذي عملوه أو صنعوه بقواهم والمراد به ما يُتخذ من الثمار كالعصير والدبس وغيرهما**"(١)

وقوله تعالى: "**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**" استفهام إنكاري توبيخي، ينكر على من تنعم ؛ فأكل وشرب من نعم الله ، ثم جحد وكفر ، واستعلى واستكبر ، يرتع في نِعم الله ولا يشكر، وينظر لنفسه كيف خُلق ثم ينكر بعثه.

(١) روح المعاني ٨/٢٣

المبحث الثاني

ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام تكذيب المشركين للرسل –عليهم السلام–

ذُكرت الجنة بمعنى (البستان) في مقام تكذيب الأقوام لرسلهم على مر الزمان، في مواضع هي:

١. قال تعالى: "**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**"(١)

٢. قال تعالى: "**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**"(٢)

٣. قال تعالى: "**أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**"(٣)

٤. قال تعالى: "**فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**"(٤)

---

(١) سورة نوح الآية ١٠: ١٢

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٣١: ١٣٥

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٤٦: ١٥٠

(٤) سورة الشعراء ٥٧: ٥٩

٥. وقال تعالى: "**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**"(١)

٦. **قوله تعالى: "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا**"(٢)

٧. قوله تعالى: "**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**"(٣)

٨. قال تعالى:"**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**"(٤)

---

(١) سورة الدخان ٢٥: ٢٨

(٢) سورة الإسراء ٩٠: ٩١

(٣) سورة الفرقان ٧: ٨

(٤) سورة ق ٩: ١١

أولا: تكذيب (قوم نوح) لنبي الله (نوح) –عليه السلام–

قال تعالى: "**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**"(١)

دعا نبي الله نوح –عليه السلام– قومه للإيمان؛ فأبوا وأصروا على الكفر ، قال تعالى:"**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**"(٢)

فذكرهم بنعم الله –تعالى– التي سيغدقها عليهم إن تابوا وآمنوا، قال تعالى:" **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**" والأمر فيه للنصح والإرشاد، وذكر الله –تعالى– بلفظ الرب وأَضَافَه إليهم فقال: **(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ)**، ولم يقل: استغفروا الله ؛ ليوضح لهم بالغ رحمة الله –تعالى– بهم إن استغفروا وآمنوا ، وإضافتهم إلى لفظة الرب فيه شيء من الحنو والاستعطاف ؛حثا لهم على الإنابة لله ، فقد كان حال سيدنا نوح –عليه السلام– مع قومه مزيجا من الاستعطاف والقوة ، عاملهم باللين تارة ، وبالشدة تارة أخرى ؛ فلم يُجدِ معهم هذا ولا ذاك نفعا.

وأكد لهم مغفرة الله تعالى إن تابوا وآمنوا بقوله تعالى: "**إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا** "؛ فهو خبر مؤكد بـ:(إنَّ) واسمية الجملة؛ ليزيل الشك في المغفرة من قلوبهم إن تطرق إليها خاصة بعد أن جاهروا بالكفر وعاندوا.

(١) سورة نوح الآية ١٠: ١٢

(٢) سورة نوح الآية ٧

وبين (**اسْتَغْفِرُوا**) و (**غَفَّارًا**) جناس اشتقاق يزين اللفظ بجرسه الموسيقي إلى جانب ما يميز الألفاظ من حسن انتقاء صيغها، فلفظة (**غَفَّارًا**) على زنة (فعَّال)؛ توضح بالغ رحمة الله –عز وجل– بعباده.

واستخدم الذكر الحكيم صيغة المضارعة في الأفعال (**يُرْسِلِ – يُمْدِدْ– يَجْعَلْ**) في قوله تعالى: "**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**"؛ ليبين تكرار وقوع الحدث من إرسال الغيث، والإمداد بالأموال والبنين ، وجعل الجنات هبة لعباده ،وتكرار تلك الهبات العظيمة دليل على وافر عطاء الله –جل شأنه– وعلى أنه الخالق الواحد المنعم على عباده ،فهو المستحق للذكر والثناء لا شك في ذلك.

واختص الذكر الحكيم لفظة(مِدْرَارًا) دون غيرها من الألفاظ إلى جانب مراعاة تناسق الفاصلة (غفارا –مدرارا –أنهارا) لأن؛ "**الدال والراء في المضاعف يدل على أصلين: أحدهما: تولد شيء عن شيء، والثاني: اضطراب في شيء**"[1] وبالنظر إلى نزول الغيث من السماء أجد السماء تضطرب ويتكاثف السحاب ثم يتولد المطر منه، وكأن الأصلين من الاضطراب والتولد قد تحققا في عملية نزول المطر من السماء.

ولفظة (**مِدْرَارًا**) على صيغة (مِفعال) ، وهي صيغة مبالغة تدل على كثرة هطول المطر ؛ مما يترتب عليه الانتفاع المستمر بسقيا أنفسهم وأنعامهم وزروعهم ، وأشعر أن الكثرة لا تنبع من صيغة المبالغة فقط ، ولكنها أيضا تبدو في مخارج حروف كلمة (**مِدْرَارًا**) ؛ حيث تكرار حرف الراء ، فـ"**إذا تكرر الحرف في الكلام على أبعاد متقاربة أكسب تكرار صوته ذلك الكلام**

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/٢٥٥

إيقاعا مبهجا، يدركه الوجدان السليم حتى عن طريق العين فضلا عن إدراكه السمعي بالأذن"[1] ، وحرف الراء حرف مكرر من خصائصه **(التحرك والتكرار والترجيع)**[2]ويتوسط الرائين حرف المد بالألف ؛فينفتح الفم للنطق به ؛ مما يشعر بوفرة الغيث من مجرد النطق بالكلمة.

وعبَّر الذكر الحكيم عن الغيث بلفظة السماء على سبيل المجاز المرسل؛ لعلاقة المجاورة أو المحلية، وتبدو بلاغة المجاز في بيان وفير كرم الله – عز وجل–؛ إذ يرسل الغيث بعد اشتياق الأرض وأهلها مدرارا، وكأنه أنعم عليهم بإرسال السماء كلها تسقيهم عذبا طهورا.

ونكَّر لفظتي **(جَنَّاتٍ - أَنْهَارًا)**؛ للتفخيم من مكانتهما، فعليهما تقوم الحياة، فما حياة الإنسان بدون غذاء وماء! إنهما من أَجَلِّ النعم التي أنعم الله بها على البشرية، ذكرهما في معرض تكذيب القوم لنبيهم نوح –عليه السلام–؛ لعلهم يتدبرون أن من خلق الجنات والأنهار هو الأحق بالعبادة، ناصحا إياهم ومحفزا لهم على الاستغفار والتوبة والإيمان؛ ليغدق الله –جل شأنه– عليهم من عطاياه.

(١) التكرير بين المثير والتأثير د. عز الدين علي السيد ٤١ ط١ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها د. حسن عباس ٨٥ ط١ اتحاد الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٩٨

ثانيا: تكذيب (عاد) لنبي الله (هود) –عليه السلام–

قال تعالى: "**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**"(١)

الخطاب لقوم سيدنا هود –عليه السلام– أمرهم نبيهم بطاعة الله –تعالى– والإيمان به مذكرا بنعمة الله –تعالى– عليهم من الأنعام والبنين ، والجنات والعيون، ومحذرهم من عذاب يوم القيامة.

والأمر في قوله تعالى:"**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**" للنصح والإرشاد ، وكرر الأمر بالتقوى في قوله تعالى: " **وَاتَّقُوا**" ؛ليؤكد وجوب طاعة الله –تعالى– ، ويقررها بالدليل القاطع ؛وهو أن الله –جل شأنه– هو المنعم الرزاق ؛أنعم عليهم بالأنعام والبنين ،والجنات والعيون ؛فهو الأحق بالعبادة لا أوثانهم.

والتعبير بالموصول في قوله تعالى: " **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ**" لتعظيم المولى – جل شأنه ، وعبّر بالموصول في قوله تعالى: "**أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ**" ؛للتفخيم من قدر النعم الموهوبة لهم والتي هم على علم بها.

وتكرار لفظة (**أَمَدَّكُمْ**) في قوله تعالى:" **أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ** " تعليلا للنصح والإرشاد ،ففي (**مقام الإقناع بالحكم تُذكر العلة ،فإنّ ذكر الحكم للشيء أو عليه معللا أدعى للنفس إلى قبول الكلام والرضا به**(٢)) ،ففي التكرار شيء من التنبيه نُصحا ؛للفت النظر إلى صاحب المدد ؛ فهو المنعم أمدهم بوفير النعم ، والجملة من التفصيل بعد الإجمال ، فقد أجمل في قوله تعالى: "**أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ** " ، ثم فصَّل ما يعلمون من النعم في قوله تعالى:

(١) سورة الشعراء الآيات ١٣١: ١٣٥

(٢) ينظر:التكرير بين المثير والتأثير د.عز الدين علي السيد ١٢٢

"**أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** " منكرا لفظتي **(جَنَّاتٍ) و (عُيُونٍ)** كما نكرها في مواضع سابقة ؛ لتفخيم قدر ما أنعم الله به عليهم ومع ذلك كفروا بالله وكذَّبوا رسولهم.

وقوله تعالى: "**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** " خبر إنكاري مؤكد بـ(إنَّ) واسمية الجملة ، أكده ؛ لأنهم منكرون لرسالته كافرون بالله ، لا يتأتى منهم اليقين بأنه يخشى عليهم من الضرر ،ويخشى عليهم من عقاب يوم الحساب ،فحالهم حال المنكر أن يكون نبي الله هود –عليه السلام– ناصحا أمينا ؛ فأكد لهم الخبر ؛ ليزيل الشك من قلوبهم ؛لعلهم يؤمنون.

ثالثا: تكذيب (ثمود) لنبي الله (صالح) –عليه السلام–

قال تعالى: "**أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**"(١)

أتى الخطاب هنا في صورة إنشائية استفهامية في قوله تعالى:"**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ**" ، والاستفهام إنكاري ؛ينكر عليهم أحلامهم بأن يخلدوا في نعيم الدنيا من البساتين والزروع والكنوز والمساكن الطيبة ، وهدف الإنكار التذكير بالآخرة والزجر عن التعلق بالدنيا ونعيمها الزائل.

والإشارة إلى المكان في قوله تعالى: "**فِيمَا هَاهُنَا**" فيه مزيد من الإنكار المشوب بالتعجب من حالهم ؛حيث أملت لهم الدنيا التشبث بها ؛فتزخرفت لهم حتى تمكنوا منها ،وتمتعوا بنعيمها ؛فأضحت مظنة للخلود في لبهم ، ومن هنا لعب الاستفهام مع الإشارة إلى المكان دورا في محاولة استفاقتهم من سبات عقولهم.

وقوله تعالى: "**فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** " تفصيل بعد إجمال ؛لمزيد من بيان الأمور التي شغفوا بها في الدنيا وتعلقت بها قلوبهم حتى خُيِّل إليهم أنهم مخلدون عليها ،فالجنات والعيون ،والزروع والنخيل من النعم ذات القدر الجليل ،التي بيَّنت الآيات أن الله –عز وجل– أنعم بها على كثير من الأمم السابقة ؛كقوم عاد وثمود ؛فكفروا بها ولم ينسبوها إلى خالقها ،وظنوا أنها حق مكتسب لهم ،سيقت إليهم بقوتهم واقتدارهم ، فأرسل الله –جل علاه–لهم الرسل ؛تبيينا وإرشادا، ووعظا وتذكيرا بأنعم الله عليهم من الجنات والزروع؛ لعلهم يعتبرون .

(١) سورة الشعراء الآيات ١٤٦: ١٥٠

و"**الهضيم: اللين النضيج ، كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره**"(١) ، وخصَّ النخل بالذكر ؛فأعاده منفردا مع أنه داخل في جملة لفظة (الجنات) كما هو الحال في آيات جرت على النسق نفسه ؛ لما في النخل من فوائد عُلِمت ، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– :"**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ،وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي ،قال: فوقع الناس في شجر البوادي ،قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة ،فاستحييت ،ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله ،قال:هي النخلة**"(٢)

"**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**" أي؛ "**أشرين بطرين كما روي عن ابن عباس ، وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس تفسيره بنشطين مهتمين ، وقال أبو صالح: أي؛ حاذقين ، وقال ابن زيد: أي؛ أقوياء .**"(٣)

والاستفهام على المعنى الأول إنكاري ؛ ينكر عليهم حقير فعلهم ؛ إذ يتمتعون بنعم الله في بطر وشر متجبرين بقوتهم عن الخضوع لله –تعالى–، والاستفهام على المعاني الأخر تعجبي ؛ يعجب من حالهم أعطاهم الله القوة والنشاط والمهارة وأنعم عليهم بنعم وفيرة ومع ذلك يكفرون بالله ويجحدون فضله.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢٩٠/٣

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه (صحيح البخاري) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري –كتاب العلم ٣٤/١ (رقم٦٢) ط١ دار ابن كثير ببيروت –لبنان ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

(٣) روح المعاني ١١٣/١٩

وهنا يأتي دور الأمر في قوله تعالى: " **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**"؛ للنصح والإرشاد بعدما ذكَّرهم بنعم الله –جل فضله– من الجنات والعيون والزروع والمساكن الطيبة الحصينة ؛ لعلهم يرجعون.

رابعا: تكذيب (فرعون وقومه) لنبي الله (موسى) –عليه السلام–

قال تعالى: "**فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**"(١)

وقال تعالى: "**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**"(٢)

ذُكرت الجنة يراد بها البستان في مقام تكذيب فرعون وقومه لسيدنا موسى – عليه السلام–؛ بيانا لما حاق بهم من العذاب في الدنيا؛ حيث أخرجهم الله – عز وجل– من بساتينهم وزروعهم ومساكنهم، وأورثها المؤمنين من بني إسرائيل.

وفي الموضعين الكريمين من سورتي الشعراء والدخان يُنكِّر الذكر الحكيم لفظتي (الجنات والعيون)؛ تعظيما وتفخيما لتلك البساتين وعيونها التي امتلكها فرعون وأتباعه؛ بيانا لعظيم نعم الله تعالى عليهم، والتي لم يشكروها؛ فعاقبهم بأن سلبها وأورثها غيرهم.

وجمع لفظة الجنة والعين والكنز والزرع؛ لتكثير تلك الجنات والعيون والكنوز والزروع التي حباهم الله –تعالى– بها، كما يتضح التكثير في آية الدخان بتقدم (كم) الخبرية.

(١) سورة الشعراء ٥٧: ٥٩

(٢) سورة الدخان ٢٥: ٢٨

في الشعراء "**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** " ،وفي الدخان "**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ** " أحسبه –والله أعلم بمراده– أنه لما بعُد ذكر بني إسرائيل في سورة الشعراء أعاده بلفظه ؛ حيث ذكرت في بداية القصة في الآية الثانية والعشرين في قوله تعالى"**وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**" ، وتوالت أحداث القصة ، فلما طال ذكرها أعادها هنا في الآية التاسعة والخمسين بلفظ (بني إسرائيل) قال تعالى: "**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** " ، أما في سورة الدخان ذكرهم بلفظ (القوم الآخرين) في الآية الثامنة والعشرين "**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ** " ؛لأنه فسَّر المراد بالقوم الآخرين في آية لاحقة قريبة الذكر ؛ وهي قوله تعالى في الآية الثلاثين:"**وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ".

خامسا: تكذيب (المشركين) لنبي الله (محمد) –صلى الله عليه وسلم–

الموضع الأول

قوله تعالى: "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا"(١)

"لما تبين إعجاز القرآن، وانضمت إليه المعجزات الأُخَر والبينات، ولزمتهم الحجة، وغلبوا؛ أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فِعل المبهوت المحجوج المُتعثر في أذيال الحيرة؛ فقالوا: لن نؤمن لك حتى وحتى..."(٢)

حتى:**(للغاية)(٣) ، ومن معانيها :(إلا أن)(٤)**

أي غاية إيماننا أن تفعل كذا وكذا، أو لن نؤمن لك إلا أن تفعل كذا وكذا.

فقد وضع كفار مكة شروطا لإيمانهم بالله ورسوله –وما هي على الله ببعيد–، ولكنهم وضعوها تعنتا وإصرارا على كفرهم؛ فنفوا إيمانهم بـ(لن) النافية للاستقبال قائلين: "**لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى**"؛ أي لا في حاضرنا ولا مستقبلنا حتى يحدث كذا وكذا؛ مما يوضح خبث نواياهم وتعللهم بحجج واهية.

---

(١) سورة الإسراء ٩٠: ٩١

(٢) الكشاف ٢/٥١٠

(٣) ينظر الجنى الداني ٥٥٤

(٤) شرح التسهيل لابن مالك جمال الدين الأندلسي –تحقيق: د.عبد الرحمن السيد – د.محمد بدوي المختون ٤/٢٤ ط١ هجر للطباعة والنشر ١٩٩٠

" **تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا**" أي: "**أرض مكة، عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تُقطع**"(١)

و(أل) في (الأرض) للعهد؛ أي الأرض المعهودة ذهنا، وهي أرض مكة ، وتنكير لفظة (**يَنْبُوعًا**) ؛للتفخيم ، فهم يريدون ينبوعا عظيما يخرج من أرضهم على يد النبي –صلى الله عليه وسلم– لا كمعجزة دالة على صدقه ،ولكن محاولة منهم لاختلاق الحجج ؛هروبا من الإذعان والإيمان بالله.

ومما يدل على تعللهم تكرار حرف العطف (أو) بين كل رغبة والأخرى؛ مما يدل على تخبطهم وتحيرهم، وعدم وقوفهم على مبدأ ثابت، فالعطف بالحرف (أو) ليس الغرض منه الاختيار بين تلك العلل، ولكن غرضه التعجيز والتعلل بالحجج الواهية هروبا من احتمالية الإيمان مستقبلا .

ومن تلك الحجج التي احتجوا بها قوله تعالى: "**أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا** "، فقد جعلوا عدم حيازة النبي–صلى الله عليه وسلم– لجنة من نخيل وأعناب ذريعة لكفرهم، واختصاصهم الجنة بصنفي النخيل والعنب؛ لأنهما من أشرف الثمار وأكثرها فوائد لا على نطاق الثمر فقط، ولكن الفائدة تشمل أجزاء الشجرة كلها خاصة النخيل.

أما عقاب الله –عز وجل– على طغيانهم في موضعهم هذا؛ فأرجأه ليوم الحساب، قال تعالى: "**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ**

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/٥١٠

دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا"(١)

والأمر في (**قُلْ**) للوجوب، لتبليغ ما أُمِر به النبي –صلى الله عليه وسلم– ،ونكَّر لفظة (شهيدا) ؛للتعظيم ،وذيَّل الآية الكريمة بقوله تعالى: "**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**" ؛أي يعلم خبايا القلوب ،ويبصر أحوال الخلق مؤكدا الجملة بـ(إنَّ) واسميتها ؛للوعيد ؛فهؤلاء الكفار تعللوا ،وأطلقوا سهام الحجج واحدة تلو الأخرى صوب النبي –صلى الله عليه وسلم– ؛هروبا من الإيمان ؛فأكد لهم الذكر الحكيم أن الله –عز وجل– عالم بحقيقة قلوبهم ،خبير بقبح قولهم وفعلهم ،بصير بأحوالهم.

ثم يتبعها بالآية الكريمة التي توضح أن كفرهم إخفاق منهم وبعد عن الهداية قاصرا الهداية على هدى الله –جل شأنه– عن طريق ضمير الفصل في قوله تعالى: "**وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ**" مستخدما الجملة الاسمية في قوله تعالى: "**فَهُوَ الْمُهْتَدِ**" ؛لتفيد ثبات حال من هداهم الله –جل شأنه– على الهداية بإذن الله ،بينما استخدم المضارع المنفي في جانب من ضلَّ قائلا –جل شأنه– "**وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ**" ؛دلالة على تجدد النفي على مر الزمان ،فمن قضى الله عليه بالضلال ؛فختم على قلبه ؛لن يُنصر ولن تجد له وليا مرشدا ولو على مر السنين.

ثم بيَّن حالهم في الآخرة بقوله تعالى: "**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**"

(١) سورة الإسراء ٩٦: ٩٧

التنكير في "**عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا**"؛ للتهويل من الحال التي سيؤول إليها مصيرهم لما اقترفوه من تفضيل الدنيا ومتاعها الزائل من الملك والجنات والزروع والقصور والكنوز على الآخرة ،وتفضيلهم صاحب الجاه والملك والجنان والزروع على غيره ؛فقد كان مقياس الرجل عندهم بما يملك ،يتفاخرون بذلك على فقرائهم حد الزهو والبطر ؛فسفَّه الذكر الحكيم أحلامهم ،وأوعدهم بمصير ترتجف منه القلوب.

الموضع الثاني

قوله تعالى: "**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**"(١)

تعلل الكفار لعدم إيمانهم بسيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– بأنه "**كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ؛حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ،ثم نزلوا أيضا فقالوا: وإن لم يكن مرفودا بملك ؛فليكن مرفودا بكنز يُلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ،ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ... أو يأكلون هم من ذلك البستان ؛فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم.**"(٢)

جملة "**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ**" معطوفة على القول السابق: "**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** " وَصَل بينهما؛ للتوسط بين الكمالين، فهما من جملة أقوال الكفار للرسول –صلى الله عليه وسلم–؛ تحججا لكفرهم.

وإشارتهم بالقريب (**هَذَا**)؛ للتقليل من شأن الرسول –صلى الله عليه وسلم–، "**والقائلون هم كفار قريش: النضر بن الحارث ،وعبد الله بن أبي أمية ... ومن ضامهم**"(٣)

---

(١) سورة الفرقان ٧: ٨

(٢) الكشاف للزمخشري ٢٣٢/٣

(٣) السابق ٢٣٢/٣

و(أل) في لفظة(**الرَّسُولِ**) للعهد؛ يعنون الرسول المعهود ذهنا وهو سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– ، وذكرهم للفظة (**الرَّسُولِ**) عقب الإشارة بـ(هذا) ؛للسخرية ،كأنهم استكثروا عليه الرسالة وهو بشر لا ملك ،لا يملك من كنوز الأرض أو بساتينها شيئا.

والتعبير بالمضارع في (**يَأْكُلُ– يَمْشِي**) يدل على تكرار الحدث، وكأنهم استنكروا عليه أن يكون بشرا يفعل مثلما يفعلون من مباحات الحياة؛ كتناول الطعام، والمشي في الأسواق؛ لقضاء المصالح.

والتنكير في الألفاظ (**مَلَكٌ–كَنْزٌ -جَنَّةٌ**)؛ للتفخيم، فكفار مكة يريدونه خارقا للعادة؛ كأن يصحبه ملك يشاركه في التبليغ، أو يُلقى إليه كنز عظيم ، أو تكون له جنة عظيمة يأكل منها.

ووصل بين قوله تعالى: "**وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**" والقول السابق "**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ**"؛ للتوسط بين الكمالين ، فكلتاهما خبرية استُهلت بالفعل الماضي ، وهو من محسنات الوصل.

ووضع الظاهر (**الظَّالِمُونَ**) موضع المضمر (وقالوا)؛ ليؤكد أنهم طغوا ، وأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر قبل أن يظلموا غيرهم.

ونكَّر لفظة (**رَجُلًا**)؛ للتقليل من شأنه في نظرهم، وليتوافق مع نبرة السخرية والاستهزاء التي ابتدأوا بها القول حين قالوا: "**مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ**".

الموضع الثالث

قال تعالى:"**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**"(١)

ذُكرت الآيات الكريمات دليلا على قدرة الله –عز وجل– على البعث ؛ردا على كفار مكة الذين كذبوا الرسول –صلى الله عليه وسلم– منكرين البعث ، فقد سبقها قول الله –تعالى– :"**بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ**" (٢) ، ولحقها قوله تعالى:"**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** "(٣) ؛أي كذّب كفار مكة كما كذَّب من سبقهم من الأمم الخالية رغم ما يرون أمام أعينهم من قدرة الله –عز وجل– وإبداعه في خلقه ؛كيف بنى السماء وزينها ما بها من فروج ،وكيف مدَّ الأرض وألقى فيها الرواسي وزينها بالبساتين بالزروع والثمار .

واستخدم الذكر الحكيم صيغة المضي في الأفعال (**نَزَّلْنَا -أَنْبَتْنَا -أَحْيَيْنَا**)؛ للدلالة على تحقق تلك الأفعال تحققا جليا على مرأى أعينهم ؛لعلهم يستفيقون بالتدبر ،ويعتبرون بالنظر.

---

(١) سورة ق ٩: ١١

(٢) سورة ق الآيات ٢: ٥

(٣) سورة ق الآيات ١٢: ١٤

ووصف الماء بالمبارك؛ لأن به حياة الأنفس والزروع والثمار، فمنه كل شيء حي.

ونكَّر **(مَاءً -جَنَّاتٍ)**؛ للتفخيم من قدرهما ، فبالأول ينبت الآخر وبهما الحياة ،فلا غنى عن الزاد ولا الري إلا بالموت.

"**وَحَبَّ الْحَصِيدِ**" يعني به: "**حب الزرع الذي من شأنه أن يُحصد، وهو ما يُقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما**"(١).

"**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ**" أي: "**طوالا في السماء، "لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ "أي: منضود بعضه فوق بعض؛ إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه ، أو كثرة ما فيه من الثمر**"(٢)

وذِكر النخل بعد الجنات من ذكر الخاص بعد العام؛ إذ النخل داخل في مضمون لفظة الجنات، ولكنه خصه في أكثر من موضع في الذكر الحكيم بمفرده أو بصحبة الأعناب لما فيه من المنافع الجمة.

وقدَّم الجار والمجرور (لها) على "**طَلْعٌ نَضِيدٌ**" ؛ للاختصاص ؛فلطلع النخل وثماره هيئة ينفرد بها عن الأشجار كافة.

وتنكير لفظة **(بَلْدَةً)** ووصفها بـ**(مَيْتًا)** في قوله تعالى: "**وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**" ؛للتقليل من شأنها قبل أن يحييها الله ،وكأنه يقارن بين حالها قبل أن تمسها رحمة الله ،وحالها بعد أن دبت فيها الحياة ؛لتنبيه الغافلين المنكرين للبعث إلى مشهد يرونه ولا يتدبرون ،فمن أحيا تلك الأرض الميتة قادر على إحياء الأموات من البشر ، ومن هنا لعب التشبيه التمثيلي دورا

(١) الكشاف للزمخشري ٣٢٩/٤

(٢) السابق ٣٢٩/٤

عظيما في **(إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة.)**[1] ،فخروج الموتى من الأجداث محسوس مرئي في وقته ،ولكن لم تجر به العادة في منطق هؤلاء الكفار خاصة ؛فأبانه وأخرجه عن طريق التشبيه إلى ما جرت به العادة ،ويحدث على مرأى من أعينهم ؛حيث شبَّه هيئة خروج الأموات من الأجداث ،بهيئة خروج النبات من الأرض ،وقد اقترنت الأداة (الكاف) باسم الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: "**كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**" ؛مما يزيد الشبه تأكيدا ، "**وهذا النوع من الكلام يقع فيه التشبيه مقدما**"[2]،فالمشبه به مقدم ،وهو هيئة خروج النبات من الأرض إثر نزول المطر عليها ،والمشبه متأخر ،وهو هيئة خروج الموتى من أجداثهم.

(١) ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال الحسن ابن سهل العسكري –تحقيق: علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم ٢١٤ ط١ المكتبة العصرية صيدا ببيروت ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

(٢) البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي وكفاية الراضي –إعداد ودرراسة د. فريد محمد بدوي النكلاوي ٤٨/١ ط١ مطبعة الأمانة بمصر ١٤٠١هـ ١٩٨١م

المبحث الثالث

ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام العقاب

ذُكرت جنة الدنيا (البستان) في مقام العقاب في مواضع هي:

١. **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"**(١)

٢. قوله تعالى:**"وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا**

(١) سورة البقرة آية ٢٦٦

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا"(١)

٣. قال تعالى:"لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ "(٢)

٤. "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ "(٣)

---

(١) سورة الكهف الآيات ٣٢: ٤٣

(٢) سورة سبأ الآيات ١٥: ١٩

(٣) سورة القلم الآيات ١٧: ٣٢

الموضع الأول:

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"(١)

ذُكرت الجنة يراد بها البستان؛ للتذكير بنعم الله تعالى ،وفي مقام تكذيب الرسل ،وكذا ذُكرت في مقام العقاب لمن تولى وكفر ،أو تهاون في أداء حق الله من الصدقة والزكاة ؛ليُضرب بها مثلا يرتعد منه الظالمون.

بعدما ضرب الله –عز وجل– المثل بجنة بربوة أصابها إما وابل أو طل لمن ينفق ماله ابتغاء مرضات الله في قوله تعالى:"**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**"(٢) بيَّن الله –عز وجل– عقاب من كفر واستغنى بماله في تلك الآية الكريمة.

استخدم الذكر الحكيم لفظة **(ودَّ)** في قوله تعالى: "**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ**" دون غيرها من الألفاظ كـ(أيحب) ؛ لأنها تدل على مزيج من الحب والرغبة في حصول الشيء ، فـ "**الواو والدال كلمة تدل على المحبة ، وَدِدْتُه: أحببته ، ووددْتُ أن ذاك كان: إذا تمنيته**"(٣)

والاستفهام إنكاري ، وإضافة لفظة (أحد) إلى كاف الخطاب وضمير الجمع فيه مزيد من الحث على التقرير ، وكأن الألفاظ يتجسد منها إصبع يشير

(١) سورة البقرة آية ٢٦٦

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٥

(٣) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ٧٥/٦

إلى المخاطبين يقررهم وينكر عليهم أن يكونوا بذاك الوصف الوارد في الآية الكريمة.

وتنكير لفظ " **جَنَّةٌ**" ؛ للتفخيم من شأنها ، وجعلها من نخيل وأعناب في الأصل ثم قال –تعالى–: "**لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**" ؛للتغليب ؛ لأن في النخيل والأعناب فوائد جمة أكثر مما في غيرهما من الأشجار ، يقول صاحب الكشاف:"**النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع ؛ خصهما بالذكر ، وجعل الجنة منهما وإن كانت محتوية على سائر الأشجار ؛ تغليبا لهما على غيرهما**"(١).

وقوله تعالى: "**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**" بيان لتوفر أسباب النماء والانتعاش لتلك الجنة ؛ إذ إن ماءها حاضر لا يغيب ،فهي لا تعتمد على سقوط المطر ،بل يجري تحتها ماؤها أيما طلبت ارتويت دون جهد أو عناء ،وتلك الهيئة تجعلها أفخم وأحب إلى قلب صاحبها.

وقدَّم الجار والمجرور (له) في قوله تعالى: "**لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**" ؛ لاختصاصه بتلك الخيرات التي تستدعي التشبث بها في ظل أحواله وصفاته التي توضحها الآية الكريمة من كونه "**وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ**" ؛ إذ بها قوام معيشته وذريته الضعاف.

وجعلها مشتملة على الثمرات كلها إلى جانب كونها من نخيل وأعناب في الأصل ؛ أدعى إلى التشبث بها أيضا؛ إذ بلغت من الفخامة ووفرة الخيرات مبلغا يجعلها ذات قيمة عالية يتعلق بها صاحبها ،ويخشى عليها من الجدب أو الضرر.

(١) الكشاف للزمخشري ٢٩٤/١

والتعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: "**وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ**" يوضح تحقق وقوع الفعل ، فقد بلغ صاحب الجنة من الكبر مبلغا يحول دون العمل والكد لإصلاحها ، وهو ما يجعله أشد خشية عليها من لحاق الضرر بها ، بينما عبَّر بالجملة الاسمية في قوله تعالى: "**وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ**" ؛لبيان ثبوت حالهم على الضعف في تلك الفترة الزمنية التي لحق فيها الضرر لجنة والدهم ؛مما يبين عجز الوالد بكبره وضعف ذريته.

وقوله تعالى: "**وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ**" احتراس وتكميل ؛يكشف عجز صاحب الجنة عن تعهدها وإصلاحها حال وقوع الضرر بها ،ليس فقط عجزه بل حسرة قلبه على حاله وحال ذريته التي جعلته مكبل اليدين يرى أمام عينيه ضياع أسباب معيشته ولا يقوى على فعل شيء هذا من جانب ، ومن جانب آخر يقضي الاحتراس على أدنى أمل في صلاح حال تلك الجنة وقت وقوع البلاء.

وعطف بالفاء في قوله تعالى: "**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ**" ، وفي قوله تعالى"**فَاحْتَرَقَتْ**" ؛ ليوضح سرعة وقوع الحدث ،ففي الوقت الذي أصابه الكبر أصابها إعصار ؛فاحترقت ، وكأن الأمر حدث على غفلة من الزمن ، ومصيبة البغتة أوجع وأفجع –أعاذ الله المسلمين جميعا– منها.

واستخدم الذكر الحكيم لفظة (الإصابة) دون (المس) فقال: "**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ**" ؛ لأنه أبلغ في موضعه ،فالإصابة أشمل من المس يقول صاحب مقاييس اللغة: "**الصاد والواو والباء أصل صحيح يدل على نزول شيء واستقرارِهِ قرَارَه ، ... كأنه أمر نازل مستقر قرارَه.**"(١) ، وهذا يعني

(١) معجم مقاييس اللغة ٣١٧/٣

أن الإعصار قصدها دون غيرها فأصابها مستقرا فيها ،والصاد أقوى من السين ؛لذا كانت لفظة الإصابة أليق بالاستخدام في موضعها هذا فـ"**كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها**"(١)

وتنكير لفظة (إِعْصَارٌ(٢))؛ تدل على تفخيمه والتهويل من شأنه ، وقوله تعالى: "**فِيهِ نَارٌ**" تتميم(٣) ؛للمبالغة في كونه مجرد إعصار يمر ولا يضر ، بل هو إعصار فيه نار يستقر ؛فيهلك ما استقر فيه.

وعطف قوله تعالى: "**فَاحْتَرَقَتْ**" بالفاء ؛ليبين سرعة النتيجة لعظم السبب ،فالأمر كله حدث سريعا دون وقفات أو إمهال وهنا يعظم الأثر النفسي ويتفاقم إثر الصدمة الباغتة.

والآية كلها ضُربت على سبيل المثل ؛فهي استعارة تمثيلية ،استعار فيها هيئة شيخ كبير كَبر سنه وضَعف جسده وله ذرية ضعاف لا يكفونه أمره بل هم عالة عليه في حاجة للرعاية ،وله جنة من نخيل وأعناب وثمرات في أبهى الصور ، أصابها إعصار فيه نار ؛فاحترقت دون أن يقدر على فعل شيء لها يمنع الضرر عنها ،أو يتسبب في إصلاحها ،لهيئة رجل عمل بالصلاح في بادئ أمره ثم ختم عمله بالكفر في آخرته ، أو لمن أنفق ماله

---

(١) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني –ت: عبد الحميد هنداوي ١٥٧/٢ ط١ دار الكتب العلمية ببيروت–لبنان د.ت

(٢) الإعصار: ريح تهب بشدة ،وتثير الغبار،وترتفع إلى السماء كالعمود /الوسيط مادة (عصر)

(٣) التتميم: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة كالمبالغة/ الإيضاح للخطيب القزويني –شرح:د. عبد المنعم خفاجي م٣/١ /٢١٢ ط٣ دار الجيل ببيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

رياء الناس ؛ففقد ماله وأضاع ثوابه ونال وزره ؛ فأتى ربه خالي الوفاض في وقت هو في أشد الحاجة إلى حسنة تصرفه عن نار جهنم ؛فوجدها وزرا وإثما على إثم.

"وعن الحَسَن –رضي الله عنه–: هذا مثل قَلَّ واللَّهِ من يعقلُه من الناس: شيْخٌ كبير ضَعُف جسمه، وَكَثُرَ صبيانه ، أَفْقَرُ ما كان إلى جنته، وإن أحدكُم أَفْقَرُ ما يكُونُ إلى عمله، إذا انقطعت عنه الدنْيَا."(١)

والجامع هيئة إبطال المنفعة في وقت الحاجة إليها مع الأسف البالغ وانقطاع الأمل المفعم بالحسرة والندم؛ لتقدم الأسباب التي تحول دون حدوث النفع أو تجنب الضرر.

وبلاغة الاستعارة تكمن في نقل المعنى العقلي إلى معرض المشهد الحسي **"ولا شك أن الانتقال من المعنوي المجرد إلى المحسوس المتخيل أشبه باجتياز هاوية بين عدوتين على جسر قصير يوفر الطريق ،ويؤمن المجتاز"**(٢) ،فالمشهد الحسي يكمن في القلب وتحضر صورته في الذهن كلما استدعاه الفكر ؛ ليبين بها الحسرة البالغة ؛ لفقدان أسباب المنفعة مع شدة الحاجة إليها بعد امتلاكها خاصة ، ففقدان الشيء بعد امتلاكه ونماء الأمل به أشد حسرة وأفجع للنفس ؛لإفاقة الناس من غرور الحياة وحب المظهر ، وبيان الفارق العظيم بين من اشترى رضا الناس رياء ،ومن أخلص لوجه الله –عز وجل– رغبة ورهبة.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢٩٣/١

(٢) التصوير البياني د.حفني محمد شرف ١٥١ ط١ مكتبة الشباب بالقاهرة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م

وذُيّلت الآية الكريمة بقوله تعالى: "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ " دعوة منه –جل علاه– للتدبر في آيات الله –عز وجل– وأمثاله.

الموضع الثاني

قوله تعالى:

"وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا"(١)

مناسبة الآيات الكريمات:

"قِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَخَوَيْنِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَالِيلَ وَكَانَ كَافِرًا، وَأَبِي سَلَمَةَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْأَسْوَدِ كَانَ مُؤْمِنًا. وَقِيلَ: أَخَوَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرْطُوسُ وَهُوَ الْكَافِرُ وَقِيلَ: اسْمُهُ قِطْفِيرُ، وَيَهُوذَا وَهُوَ الْمُؤْمِنُ فِي قَوْلِ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: اسْمُهُ تَمْلِيخَا وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي الصَّافَّاتِ فِي قَوْلِهِ: "قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ" ،وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

(١) سورة الكهف الآيات ٣٢: ٤٣

أَنَّهُمَا ابْنَا مَلِكٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفَقَ أَحَدُهُمَا مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ الْآخَرُ وَاشْتَغَلَ بِزِينَةِ الدُّنْيَا وَتَنْمِيَةِ مَالِهِ ،وَرُوِيَ: أَنَّهُمَا وَرِثَا مِنْ أَبِيهِمَا ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِينَارٍ، فَاشْتَرَى الْكَافِرُ أَرْضًا بِأَلْفٍ وبنى دارا بِأَلْفٍ وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً بِأَلْفٍ وَاشْتَرَى خَدَمًا وَمَتَاعًا بِأَلْفٍ، وَاشْتَرَى الْمُؤْمِنُ أَرْضًا فِي الْجَنَّةِ بِأَلْفٍ فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَجَعَلَ أَلْفًا صَدَاقًا لِلْحُورِ فَتَصَدَّقُ بِهِ، وَاشْتَرَى الْوِلْدَانَ الْمُخَلَّدِينَ بِأَلْفٍ فَتَصَدَّقُ بِهِ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ حَاجَةٌ فَجَلَسَ لِأَخِيهِ عَلَى طَرِيقِهِ فَمَرَّ فِي حَشَمِهِ فَتَعَرَّضَ لَهُ ،فَطَرَدَهُ وَوَبَّخَهُ عَلَى التَّصَدُّقِ بِمَالِهِ. "(١)

المثل فيمن أراد من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يصرف وجهه عن ضعفاء المؤمنين ،فضرب بالقصة مثلا لمن تفاخر بنسبه وماله من أهل قريش ،واستعلى بهما على الفقراء ، أي:"**اضرب يا محمد –صلى الله عليه وسلم– لهؤلاء المشركين بالله، الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، (مَثَلا) ... قال أهل التأويل... (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا) يقول: وأعزّ عشيرة ورَهْطا، كما قال عُيينة والأقرع لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن سادات العرب، وأرباب الأموال، فنحّ عنا سلمان وخبَّابا وصُهيبا ؛احتقارا لهم، وتكبرا عليهم." (٢)**

فالأمر في قوله تعالى: "**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا**" على حقيقته للوجوب إرشادا

(١) ينظر: البحر المحيط لأثير الدين أبي حيان ابن يوسف الأندلسي –تحقيق: صدقي محمد جميل ١٧٧/٧: ١٨٢ ط١دار الفكر ببيروت –لبنان ١٤٣١هـ ٢٠١٠م

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري –تحقيق: أحمد محمد شاكر ١٦/١٨: ١٨ ط١ مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م

وتوجيها وتحذيرا ؛أي اضرب يا نبي الله المثل للكفار ؛ تنبيها للإرشاد والتحذير أن يؤول مصيرهم لما آل إليه من سبقهم.

"وَالضَّمِيرُ فِي لَهُمْ عَائِدٌ عَلَى الْمُتَجَبِّرِينَ الطَّالِبِينَ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرْدَ الضُّعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، فَالرَّجُلُ الْكَافِرُ بِإِزَاءِ الْمُتَجَبِّرِينَ ،وَالرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ بِإِزَاءِ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ"(١)

والتعبير بالماضي في (جَعَلْنَا –حَفَفْنَا) يفيد تحقق وقوع الفعل ؛فقد جعل الله جنتيه من عنب وحفهما بالنخل ؛أي أحاطهما بالنخل كما يفعل أصحاب البساتين بإحاطة الأشجار اللينة بأشجار صلبة تصد عنها عنف الريح ،وجعل وسط هذه الأشجار زرعا ،والتنكير في (أعناب –نخل) ؛للتفخيم من شأنهما حيث الجودة ووفرة النتاج بدليل قوله تعالى: "**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا**" ، أي كلتاهما آتت أكلها من الأعناب والنخل وأصناف الزروع ، ونكَّر لفظة (شيئا) في قوله تعالى:"**وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا**" للتقليل ؛ أي لم ينقص من ثمرها شيء ولو أقل القليل ، بل آتت أكلها على وجه التمام ، على الوجه الذي يَسُر صاحبها ويزيده تعلقا بها.

والتعبير بالماضي في قوله تعالى:"**وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا**" ؛لتحقق وقوع التفجير ،"**وهو التفتح في الشي ، ومنه: انفجر الماء انفجارا: تفتح**"(٢) ، وأتى به الذكر الحكيم مضعفا على زنة (فَعَّل) ؛ للتكرير ،"**فقد جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل**"(٣) ،كأنه تفجير بعد تفجير ، فالنهر لا ينضب ؛مما يوضح وفرة مائهما ، فلا يصيبهما العطش

(١) البحر المحيط ١٧٧/٧: ١٨٢

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤٧٥/٤

(٣) الخصائص لابن جني ١٥٣/٢

؛فيجهدهما ، ولا تُنهَك قوى صاحبهما في طلب السقيا ؛مما يزيد من تعلقه بهما وحبه لهما.

"وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا"

فعل الكون الماضي يدل على تحقق الإثمار ،فالجنتان كانتا مثمرتين وقت أن فاضل صاحبه ؛ليتميز بهما عليه.

الواو في قوله تعالى:"**وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**" واو الحال ،والجملة حالية تحسن بالواو ،يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "**حَسُن أنك تقول: جاءني زيد والسيف على كتفه ،وخرج والتاج عليه ؛فتجده لا يحسن إلا بالواو ،وتعلم أنك لو قلت: جاءني زيد السيف على كتفه ،وخرج التاج عليه ؛كان كلاما نافرا لا يكاد يقع في الاستعمال.**"(١)

وبلاغة الجملة الحالية "**وَهُوَ يُحَاوِرُهُ** " تبدو في بيان أن قوله لصاحبه: "**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا** " كان في جملة الحوار ضمن أقوال أخرى تدل على قناعته بما يعتقده ؛وهو أن الفضل والتميز بالمال والولد لا بالعمل الصالح مما يدل على فساد مذهبه.

وأفعل التفضيل في "**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**" يدل على أن للمفضول مالا وولدا ولكنه قليل مقارنة بالأفضل من وجهة نظره "**وَهَذَا عَلَى عَادَةِ الْكُفَّارِ فِي الِافْتِخَارِ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَعِزَّةِ الْعَشِيرَةِ وَالتَّكَبُّرِ وَالِاغْتِرَارِ بِمَا نَالُوهُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، وَمَقَالَتُهُ تِلْكَ لِصَاحِبِهِ بِإِزَاءِ مَقَالَةِ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ لِلرَّسُولِ**

(١) الدلائل ٢٢١

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَحْنُ سَادَاتُ الْعَرَبِ وَأَهْلُ الْوَبَرِ وَالْمَدَرِ، فَنَحِّ عَنَّا سَلْمَانَ وَقُرَنَاءَهُ." (١)

"وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا"

الواو في قوله تعالى:"**وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**" للحال ،والجملة حالية ؛أي تحقق دخوله جنته حال كونه ظالما لنفسه لا لصاحبه حين كَفَر ،وتوهم أن حطام الدنيا يُغنيه ويقيه من عذاب الآخرة ؛فاستعلى بغناه ؛فكفر ، فالكفر ظلم بين للنفس ، فهو على حد قول الله تعالى: "**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**"(٢) ، والجملة الحالية اسمية تدل على الثبوت ، فظلمه لنفسه بكفره واستكباره على خالقه قبل صاحبه ثابت غير متغير لا أمل في رجوعه لرشده؛ بدليل قوله تعالى تعبيرا عن حال لبه ولسانه: "**قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**" وهنا نفى بحرف النفي (ما) التي هي أشد تأكيدا للنفي عن غيرها من أدوات النفي ؛يقول سيبويه "**إذا قال: فعل فإنَّ نفيه لم يفعل ،وإذا قال: قد فعل فإن نفيه لمَّا يفعل. وإذا قال: لقد فعل فإنَّ نفيه ما فعل ؛ لأنه كأنَّه قال: واللَّه لقد فعل ؛ فقال: واللَّه ما فعل.**"(٣)

---

(١) السابق ١٧٧/٧: ١٨٢

(٢) سورة النحل جزء آية ٣٣

(٣) الكتاب لأبي عمرو بشر بن عثمان (سيبويه)– تحقيق: عبد السلام محمد هارون ١١٧/٣ ط٣مكتبة الخانجي –القاهرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ، وينظر: معان النحو د. فاضل صالح السامرائي ١٩٢/٤–١٩٣ ط١دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠

وهذا يعود بدوره على المعنى بتأكيد نفي زوال جنتيه ، ليس فقط بل تأكيد نفي قيام الساعة في اعتقاد صاحب الجنتين.

وبلاغة النظم لا تقتصر على استعمال (ما) دون غيرها من أدوات النفي فقط ، لكن دخولها على فعل الظن أيضا في قوله تعالى: "**مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ**" و" **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**" فنفيه اخترق درجات توقع حدوث الفعل حتى انتهى إلى نفي الظن ، أي أنه ينفى حتى مجرد الظن أن تبيد الجنتان أو أن تقوم الساعة ، فنفيه تعدى كل الحدود حتى لم يترك لنفسه فرصة للظن أن تبيد الجنة أو تقوم الساعة ، ومن هنا كان استعمال (ما) النافية الداخلة على فعل الظن ؛ليؤكد النفي تأكيدا لا يدع مجالا للشك في حدوث الفعل.

ومن بلاغة النظم أيضا المفارقة في استخدام الصيغ ؛ بحيث استخدم الفعل المضارع (تَبِيدَ) في نفي إبادة الجنتين ،بينما استخدم الاسم المنفي(قَائِمَةً) في نفي قيام الساعة ،ولم يقل: (تقوم) ؛ لأن الجنتين –حاضرتان أمام عينيه، فيهما من النخيل والأعناب والزروع ما تشتهيه النفوس ، تَفجَّر النهر أوسطهما فسقاهما وكساهما أبهة وروعة للمنظر ،وقد آتت أكلهما ولم ينقص منه شيئا ؛لذا استخدم المضارع المنفي ؛لنفي وقوع الحدث نفيا متجددا على مر الزمان ؛ يعني لن تبيد الآن ولن تبيد في المستقبل في أي لحظة من اللحظات على مر الأعوام ؛ بدليل إدخاله النفي على الفعل المضارع ، أما وقت قيام (الساعة) فقد نفى وقوعه باستخدام الاسم (قَائِمَةً) ؛ ليؤكد ثبوت النفي ؛ فاعتقاده أن ليس للساعة وجود ولا قيام ثَبت ظنه على نفي ذلك ؛ مما يدل على أنه لا يؤمن بالساعة أصلا.

وأشار إلى الْجَنَّةَ بالقريب (هذه) ؛ في قوله تعالى: "**قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا**"؛ لقربها إلى قلبه وتعلقه بها، فقد بالغ في حبها حتى ظن أن من

صفاتها الخلود ،وجعل نفي الإبادة عنها نفيا مؤبدا بدلالة قوله: (أبدا) ظنا منه أنه لن يلحقها الضرر لا في حاضرها ولا في مستقبلها.

وفي استخدامه من أدوات الشرط (إن) دون (إذا) في قوله تعالى:"**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**" ؛فلأن الأصل فيها **(ألا يكون الشرط مقطوعا بوقوعه،بأن يتردد في وقوعه ،أو يُظن عدم وقوعه)**[1]

دلالة على الشك في حدوث فعل الشرط ، فنظرة صاحب الجنتيين إلى الحياة الأخرى والبعث والحساب نظرة شك وإنكار ؛ فقد نفى قيام الساعة في قوله: "**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**" ، ثم أردف بأنها حتى إن قامت وهو أمر مشكوك فيه –من وجهة نظره– فسوف يجد خيرا من جنته قد ادخرها الله – عز وجل– له ، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على نقصان عقله ، وطغيان كبره وغروره على فهمه وتدبره.

وفَصَل الذكر الحكيم بين قوله:"**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**" وبين القول السابق ؛ لشبه كمال الاتصال ؛حيث اقتضى ما سبق ذكره على لسان صاحب الجنتين سؤالا فحواه: بم رد عليه صاحبه ؟ فأتت هذه الجملة مبينة جواب صاحبه ،وجملة "**وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**" حالية توضح حال صاحبه ؛ إذ لم يُعرض عنه متجاهلا ولكنه أجابه محاورا ؛لعله يرده إلى رشده.

والاستفهام في قوله تعالى: "**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**" إنكاري توبيخي ينكر عليه صاحبه الكفر والجحود وعصيان الله

(١) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي م١/١/١٦٩ ط١٧ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

وإنكار الآخرة ؛لذا اختص من تذكيره بآيات الله تذكيره بهيئة خلقه من تراب ؛لأن صاحب الجنتين أنكر البعث واستبعد حدوثه ؛فكان رد صاحبه عليه بتذكيره بأن الله –جل علاه– خلقه من تراب ،ومن خلق ابتداء أعاده وهو عليه هين ؛ فالإعادة بالبعث أهون من الإنشاء من عدم وأيسر.

واستخدم الموصول (الذي) العائد على الخالق –جل شأنه– ؛تعظيما للمولى ،وصونا لذكره في مثل هذا الموضع من الحوار.

وذكَّره بأصل خلقه من (تراب) وهو أصل خلق أبينا آدم –عليه السلام– ، ثم من نطفة وهو أصل خلق بني آدم ؛ليبين له أن أصله من تراب ومن نطفة فلا تستكبر ، وأن الخلق منه عند الله يسير ، وعليه فأمر الإعادة أيسر ، وأمره في الاستكبار منكر.

وعطف بـ(ثم) في قوله تعالى: "**ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**" ؛ للتراخي بين حاله وهو نطفة ضعيفة في رحم أمه، وحاله وهو رجل قد استوى على عوده وأينعت قوته ، وفيه توبيخ لصاحب الجنتين ؛ لأن من أنعم عليه بجزيل عطائه ، فجعله من نطفة قليلة الشأن إلى رجل صاحب مال وولد وزروع وثمار ؛ يستحق الشكر على نعمه لا الكفر والجحود.

وفي قوله تعالى:"**لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**" استدراك يبين به أنه يخالف صاحبه ، فهو يوحد الله لا يشرك به شيئا ، وهو تعريض بصاحبه أنه أشرك بالله على حد قولك لأحدهم وقد فعل شيئا قبيحا: (لكني لا أفعله).

"**وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**"

لولا: حرف تحضيض[1]؛ للحث على تسليم المشيئة لله تعالى بمعنى: "**هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها: ما شاء الله ؛اعترافا بأنها وكلّ خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله ، وأن أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء خرّبها ،وقلت: لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ؛إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده ؛إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى، وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب ،فيدخل من شاء، وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج.**"**(٢)**

جملة "**مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ** " تسليم بأن المشيئة بيد الله تعالى ،والقوة بقدرته ،ويقين بأن كل ما يصدر من الإنسان من قوة أو عمل أو اقتدار إنما هو بإرادة الله تعالى الذي أودع شيئا من القوة لخلقه يتعايشون بها ويسيّرون بها أعمالهم.

"**إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**"

"**ثُمَّ أَرْدَفَ تِلْكَ النَّصِيحَةَ بِتَرْجِيَةٍ مِنَ اللَّهِ، وَتَوَقَّعَهُ أَنْ يَقْلِبَ مَا بِهِ وَمَا بِصَاحِبِهِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى. فَقَالَ: إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَداً أَيْ إِنِّي أَتَوَقَّعُ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ أَنْ يَمْنَحَنِي جَنَّةً خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ لِإِيمَانِي بِهِ، وَيُزِيلَ عَنْكَ نِعْمَتَهُ لِكُفْرِكَ بِهِ ،وَيُخَرِّبُ بُسْتَانَكَ... وَهَذَا التَّرَجِّي إِنْ كَانَ ذَلِكَ أَنْ يُؤْتِيَهُ فِي الدُّنْيَا ،فَهِيَ أَنَكَى لِلْكَافِرِ وَآلَمُ ؛إِذْ يَرَى حَالَهُ مِنَ**

(١) ينظر: الجنى الداني ٦٠٥

(٢) الكشاف ٢/٧٢٢

الْغِنَى قَدِ انْتَقَلَتْ إِلَى صَاحِبِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَنْ يُؤْتِيَهُ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ أَشْرَفُ وَأَذْهَبُ مَعَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ."(١)

"وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ"

استخدم المضارع (يرسل) ؛ليبين تكرار وقوع الحدث ؛أي إرسال يعقبه إرسال حتى تفنى تلك الجنة التي تتفاخر بها ،وتستكثر بها على الخلق والخالق.

ونكَّر لفظة (حسبانا) ؛للتهويل من قدر الحسبان ، "**والحسبان: العذاب ،وفي حديث يحيى بن يعمر: كان إذا هبت الريح يقول: لا تجعلها حسبانا ؛أي عذابا ، والحسبان: النار**"(٢) ، والحسبان: "**التدبير الدقيق**(٣)" ،كأن ما أرسله الله عليها عذاب من نار بحساب دقيق ؛حيث سلطه على تلك الجنتين خاصة دون غيرهما.

والزلق: "**الموضع الذي لا تثبت عليه قدم ؛لملاسته**(٤)" ؛أي أنها لم تعد صالحة للزراعة فقط بل لم تعد صالحة للتجول فيها أيضا ؛حيث جعلها سبخة زلقة عديمة النفع.

"فَتُصْبِحَ صَعِيداً أَيْ أَرْضًا بَيْضَاءَ لَا نَبَاتَ فِيهَا لَا مِنْ كَرْمٍ وَلَا نَخْلٍ وَلَا زَرْعٍ، قَدِ اصْطُلِمَ جَمِيعُ ذَلِكَ ؛فَبَقِيَتْ يَبَابًا قَفْرًا يُزْلَقُ عَلَيْهَا لِإِمْلَاسِهَا، وَالزَّلَقُ الَّذِي لَا تَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ ذَهَبَ غِرَاسُهُ وَبِنَاؤُهُ وَسُلِبَ الْمَنَافِعَ حَتَّى مَنْفَعَةَ الْمَشْيِ فِيهِ

(١) البحر المحيط ١٧٧/٧: ١٨٢

(٢) مختصر تاج العروس للزبيدي –تقديم: سمر إبراهيم ٣٣٣/١ ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٤م

(٣) ينظر: المعجم الوسيط مادة (حسب)

(٤) السابق مادة (زلق)

فَهُوَ وَحْلٌ لَا يَنْبُتُ وَلَا يَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الزَّلَقُ الطَّرِيقُ الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ، وَقِيلَ: الْخَرَابُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: رَمْلًا هَائِلًا، وَقِيلَ: الزَّلَقُ الْأَرْضُ السَّبْخَةُ"

وقوله: **(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا)**[1] يعني غائرا ، فأسند إلى المصدر على سبيل المجاز العقلي ؛للمبالغة في بيان غياب الماء بباطن الأرض ؛بحيث لا يقدر على استخراجه ،وتلك مهلكة للزروع.

وقوله: "**فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**" يقول: فلن تطيق أن تدرك الماء الذي كان في جنتك بعد غَوْره، بطلبك إياه."(٢)

ونفى بـ(لن) خاصة ، وهي تخلص المضارع للاستقبال ؛ ليعود على المعنى ببيان انعدام صلاح جنته ولو بمرور الزمن ؛حيث إن انقطاع الماء عنها يميتها ،وانقطاعه لا في حاضره فقط ،ولكنه في الحال والاستقبال ،وفيه إنذار وتخويف شديد ؛لعله يعود لرشده.

وتنكير لفظة (طلبا)؛ للتفخيم ،بمعنى مهما يكن من قدرتك على طلبه واستعدادك لاستخراجه ؛لن يجدي ذلك نفعا.

"وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا "(٣)

---

(١) غار الماء: ذهب في الأرض وغاب فيها /الوسيط مادة (غور)

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري ١٦/١٨: ١٨

(٣) سورة الكهف الآيات ٣٢: ٤٤

أُحِيطَ بالشيء: هلك "**وأصله من أحاط به العدوّ ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك.**"(١)

وبالنظر لأصل المعنى أجد بها استعارة تمثيلية ؛حيث استعار هيئة إغارة العدو على قوم قد أحاط بهم وأتى عليهم بالهلاك ،لهيئة الجنتين أرسل الله تعالى عليهما صاعقة من السماء على وجه مخصوص تحيط بهما دون غيرهما ؛فأتت عليهما بالهلاك .

والجامع: هيئة التمكن من الشيء ،والإتيان عليه إبادة وتدميرا كاملا لأجزائه جميعها.

وبلاغة الاستعارة تكمن في: تسليط لفظ (الإحاطة) على الثمر في قوله تعالى: "**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ**" ، فالثمر هو الغاية المرجوة لصاحب الجنتين ؛مما يبث من تسليط لفظة (الإحاطة) على الثمر حسرة بالغة في لب صاحب الجنتين يتقطع قلبه بها ندما.

ولذا يصف الذكر الحكيم الحالة الشعورية التي انتابت صاحب الجنتين بقوله تعالى: "**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**"؛ فتقليب الكفين كناية عن الحسرة والندم الذي تملكه فطغى على حواسه الداخلية إلى حركات اليد الخارجية.

والجملة الحالية "**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**" تدعم الموقف بل هي السبب الرئيس في تلك الحالة الصاعقة التي أصابت صاحب الجنتين ؛فكونها خاوية على عروشها يمثل منها صورة حية ناطقة لا يزال يراها أمام عينيه ؛فتصيبه بالحسرة والندم كلما نظر إلى تلك العروش الخاوية ،وكأن الصاعقة

(١) الكشاف ٢/٧٢٣

تركت تلك العروش الخاوية ؛لتنغص بها قلب صاحب الجنتين كلما همَّ بالنظر إلى جنتيه ،وتُصبغ في ذهنه صورة مرسومة لجنتين هالكتين على عروشهما لا يمحيها البعد عن الجنتين ،بل إنه كلما تذكر استحضر تلك الصورة قاسية الملامح.

هذا إلى جانب التعبير بالموصول (ما) في قوله تعالى: "**عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا**"؛ ليفيد التفخيم من قدر ما أنفقه الرجل على جنتيه؛ فالشيء الذي يأتي سهلا هينا لا يترك هلاكه في النفس ألما قدر الشيء الذي يأتي إثر تعب وجهد وإنفاق ، فذاك هلاكه على النفس أعتى،وأشد من ذلك قسوة أن يهلك بطريقة باغتة غير متوقعة على غير حسبان ولا استعداد كما حدث للجنتين.

وفي استخدام المضارع (يقول) في قوله تعالى:"**وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**" دلالة على تجدد القول، وكأنه أصبح يكررها مع تكرار تقليب كفيه.

وقوله هذا دليل على أنه أشرك بالله صراحة، ولم يكن الأمر مجرد تفاخر بالمال والولد؛ حيث قال سابقا: "**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**"؛ **فاستكباره** لم يكن على المخلوق فقط ،ولكنه استكبر على خالقه أيضا ،وأول الكفر الكبر ؛فهو أول ما استعلى به إبليس على خالقه قيل على لسانه :"**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**[1]" ،وكأن الاستكبار هو طرف الخيط الذي توصل نهايته إلى الكفر الصريح.

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا"

تنكير لفظة (فئة) الواقعة في حيز النفي للعموم؛ لتنفي النصرة عن صاحب الجنتين ولو من بعض فئة من الناس، فلم يحظ ولو بأقل القليل.

(١) سورة الأعراف جزء آية١٢

"**وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا**": بنفسه ولا بماله ولا بولده الذي افتخر بهم سابقا حين قال: "**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**" ،مستخدما الاسم (منتصرا) الواقع في حيز النفي ؛ليفيد ثبوته على تلك الحالة من انعدام النصر.

الموضع الثالث

قال تعالى:"**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** "(١)

"**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**"

"**سبأ في الأصل اسم رجل ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان... ، وإنما سُمي سبأ؛ لأنه أول من سبى السبي من ولد قحطان ،وكان ملكه أربعمائة وأربعا وثمانين سنة ،ثم سُمي به الحي ،والمراد بسبأ هنا إما الحي ،أو القبيلة ،وإما الرجل... على تقدير مضاف: (لقد كان في أولاد سبأ)."(٢)**

وعلى هذا فالجملة من سبيل المجاز المرسل ؛ لعلاقة المحلية ؛أطلق المحل (سبأ) وأراد الحالين فيه (أهل سبأ) ،أو السببية إن أراد به الرجل ؛فهو مَلكهم الأول على اسمه سميت القبيلة ،وتكاثر نسله من بعده.

(١) سورة سبأ الآيات ١٥: ١٩

(٢) روح المعاني ١٢٤/٢٢

وبلاغة المجاز على كل الأحوال تكمن في بيان أن كل مُلك غير مُلك الله زائل وإن طال عليه الأمد ، فما كان لسبأ زال كما زال ما كان لغيره من الجبابرة كفرعون وقارون والنمروذ ، وتسمية المكان وساكنيه أو الأبناء باسم صاحب النفوذ الأول والأقوى لذاك المكان ؛إنما هو تذكير للاعتبار ؛فما كان لأبناء سبأ متفرقين كان لأبيهم مجتمعا ،ولم يغن عنه من الله شيئا كما لن يغنيهم ؛إذ جحدوا وكفروا.

"مَسْكَنِهِمْ": "**أي مواضع سُكناهم وهي باليمنِ يقال لها مَأْرِبُ بينها وبين صنعاءَ مسيرة ثلاث ليال**"(١)

وجملة «**لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ**» مؤكدة باللام و(قد) فهو خبر إنكاري ،وربما لم ينكر أحد أمر سبأ ولكن لما أنكر الكفار قدرة الخالق على البعث والإعادة مستكبرين أورد الذكر الحكيم لهم قصة سبأ مفتتحا إياها بجملة مؤكدة تناسب ما بدا عليهم من إنكار البعث وجحود النعمة ؛ تذكيرا لهم ؛ليعتبروا بأحوال السابقين ، فقد افتتحت سورة سبأ –بحمد الله وبيان واسع علمه بما في السماوات والأرض وما بينهما ،تبعه بيان إنكار الكفار للساعة ؛ قال تعالى: "**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**"(٢) ثم أردف ببيان إنكار الكفار للبعث ؛ **قال تعالى:**" **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ**

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للشيخ أبي السعود العمادي ١٢٧/١٧

(٢) سورة سبأ آية ٣

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ"(١) فلما كذَّبوا قيام الساعة ، وأنكروا البعث ؛ ضرب لهم الذكر الحكيم مثلا من قصص الأمم السابقة ؛ وهي قصة أهل سبأ الذين أنعم الله عليهم بالخير الوفير ؛فجحدوا وتعالوا على الشكر ؛كفرا بأنعم الله –عز وجل– ؛ فنالوا أسوأ عقاب في الدنيا ومردهم إلى الله في الآخرة ؛ليؤكد للكفار أنهم بكفرهم وإنكارهم للبعث والحساب ما هم إلا غافلون عن جزاء الأقوام السابقين ممن كفروا ؛لذا فلينظروا وليعتبروا فلقد كان لهم في سبأ آية للاعتبار.

وفي قوله تعالى: "**جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ**" **تفصيل بعد إجمال ؛ فقد أجمل في قوله تعالى: «لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ » ؛ أي علامة ؛ للعبرة والعظة ، ثم فصَّل تلك الآية بقوله تعالى: "جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ" "وكان لكل منهم في جهة اليمين بستان وفي جهة اليسار بستان"(٢)**

والأمر في قوله تعالى:"**كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**" للإباحة ، وفيه إشعار بوفير النعمة التي أنعمها الله –عز وجل– عليهم ؛ إذ جعل لكلٍ منهم جنتين واحدة عن اليمين والأخرى عن الشمال تزخر بخير الله ، ومن هنا وصف بلدتهم بأنها: "**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ**" "**كثيرة النبات ؛لطيب أرضها ليست برطبة ولا يابسة ،ولا سبخة ولا محجرة ،ولا يوجد فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا شيء من الهوام الضارة ،حتى إن الرجل إذا دخلها وكان في ثيابه قمل أو برغوث يموت من طيب هوائها والخاصيّة التي أودعها الله فيها**"(٣)

---

(١) سورة سبأ آية ٧–٨

(٢) بيان المعاني للشيخ عبد القادر بن ملّا العاني ٥٠٥/٣

(٣) السابق ٥٠٥/٣

"وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كانت أخصب البلاد وأطيبها : تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجر ، فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر."(١)

وذيّل الذكر الحكيم الآية بقوله تعالى: "**وَرَبٌّ غَفُورٌ**" مختصا لفظ الربوبية بالذكر دون لفظ الألوهية ؛ إشعارا برحمة الله –تعالى– وقربه منهم وعفوه عنهم إن عادوا إليه وشكروا.

وفي معجم مقاييس اللغة "**الراء والباء يدل على أصول ؛ فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه ...والرب المُصلح للشيء، والله –جل ثناؤه– الرب ؛ لأنه مصلح لأحوال خلقه ....، والأصل الآخر: لزوم الشيء والإقامة عليه...، والأصل الثالث: ضم الشيء للشيء وهو أيضا مناسب لما قبله، ومتى أُنْعِم النظرُ كان الباب كله قياسا واحدا**"(٢)

والرب يصلح حالهم ويهديهم من وافر نعمته ما يحنو به عليهم ، وقد ظلت نعمه ملازمة لهم يُتبعها لهم نعمة تلو الأخرى من الزروع والثمار ، حتى لم يصبح أحد في تلك القرية إلا وقد ضمَّه الله بوافر عطائه ؛ فلفظة (الرب) هنا تشعر بحنو الخالق –جل شأنه– وإسباغه النعم عليهم ،وهو ما يستحق عليه الشكر ،ولكنهم تغافلوا عن شكر النعمة ،فأخبرهم المولى –عز وجل– بأن لهم رَبّا غَفُورا ؛لو عادوا إليه لغفر لهم وذاك هو الفضل كله.

"**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**"

(١) الكشاف ٥٧٤/٣

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣٨١/٢

العرم:"قيل العرم جمعُ عُرمةٍ وهي الحجارة المركومة ،وقيل هو اسمُ للبناء الذي يُجعلُ سدَّاً ،وقيل هو البناء الرَّصينُ الذي بنته الملكةُ بلقيسُ بين الجبلينِ بالصَّخرِ والقارِ ،وحقنت به ماء العيون والأمطار ،وتركت فيه خُرُوقاً على ما يحتاجونَ إليه فيسقيهم ، وقيل العرمُ: الجُرَذُ الذي نَقَبَ عليهم ذلك السدَّ وهو الفأرُ الأعمى الذي يقال له الخُلْدُ سلَّطه الله تعالى على سدِّهم فنقَبه فغرَّق بلادَهم."(١)

"حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ...قال سمعت المغيرة بن حكيم قال: لما ملكت بلقيس، جعل قومها يقتتلون على ماء واديهم، قال فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشر بينهم وندموا أتوها، فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها فأبت فقالوا: لترجعن أو لنقتلنك، فقالت: إنكم لا تطيعونني ... قالوا: فإنا نطيعك، وإنا لم نجد فينا خيرًا بعدك، فجاءت فأمرت بواديهم، فسد بالعرم...فحبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبوابًا ... ،فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ما كان."(٢)

وبقوا ينتفعون به في حياتها وبعد موتها مدة كثيرة على حسب وضعها، فلما طغوا وجابهوا أنبياءهم ... وقالوا لهم: إن كان ما تقولونه حقا فافعلوا، وإنا لسنا بحاجة إلى إرشادكم ولا نخاف من تهديدكم ووعيدكم، وكان قولهم هذا موافقا لأجل الانتقام منهم في قدر الله الذي قدره عليهم ، وكفروا هذه النعم ؛بغيا وعتوا ؛سلط الله تعالى الخُلد على السد ،فثقبه ؛ فطغى الماء على جنتيهم فأغرقهما وأخرب أراضيهم وأغرقها ،وفاض الماء

(١) تفسير أبي السعود ١٢٧/٧

(٢) تفسير الطبري ٣٧٩/٢٠

على دورهم فأخربها ؛فمُزّقوا كل ممزّق وندّ منهم من ند ،وصار يضرب بهم المثل عند العرب يقولون: ذهبوا أيادي سبأ ،وتفرقوا أيادي سبأ"(١)

العطف بالفاء في قوله تعالى:"**فَأَعْرَضُوا**" يدل على سرعة التعقيب ، فقد منحهم الله –عز وجل– الخير الوفير ببلدة طيبة ، وأخبرهم بأنه رب غفور ؛ ليؤمنوا ويشكروا ؛ فما كان منهم إلا المسارعة بالإعراض ، وكأنهم لم يمهلوا أنفسهم للتدبر في آيات الله ونعمه ، بل كان الإعراض والكفر ديدنهم ، رزقهم فأعرضوا.

واختص لفظة أعرضوا ؛لأن الإعراض فيه صد ونأي[٢] ،وكأنهم لا يرفضون النصح بعقولهم فقط بل ينأون بجسدهم أيضا ،قال تعالى: "**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ**[٣]" ؛أي؛أعرضوا "**عن دعوة أنبيائهم ولم يقبلوا نصحهم ،ولم يراعوا حق هذه النعم المسبلة عليهم بل كذبوهم، ... وقد ذكّروهم نعم الله،وحذّروهم عقابه ،وأنذروهم عذابه ؛فلم ينجع بهم وقالوا: ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم يحبس عنا المطر وسائر نعمه.**" (٤)

ولسرعة إعراضهم دون تدبر رغم ما وهبهم الله –جل شأنه– من النعم ورغم رحمته وعفوه عن التائبين ؛ أسرع الله لهم العقاب ، فعطف بالفاء في قوله تعالى: "**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**" ، معبرا بالماضي (أرسل) ؛ لتحقق وقوع إرسال العذاب عقب الإصرار على الإعراض كفرا .

---

(١) بيان المعاني للشيخ عبد القادر بن ملّا العاني ٥٠٤/٣

(٢) ينظر: الوسيط مادة (عرض)

(٣) سورة الإسراء جزء آية ٨٣

(٤) بيان المعاني للشيخ عبد القادر بن ملّا العاني ٥٠٤/٣

"وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ"

أي أبدلنا بجنتيهم العامرتين بطيب الثمار والزروع جنتين من خمط ، وفي ذكر الجنتين مشاكلة ؛فقد أطلق على البديل الذي منحهم إياه جنتين؛ تهكما(١).

الخمط(٢):"**حريف حامض ومرّ ،وكل شجرة ذات شوك سمي ثمرها خمط ، «وَأَثْلٍ» شجر الطرفاء ،وشجر آخر يشبهه أعظم منه ،«وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ » وثمره يسمى النبق**"(٣)

نكَّر لفظة (أُكل) ؛للتحقير ؛فكل ما سيرد بعدها من أنواع الأُكل لا يقارن البتة بما كانوا فيه من الخير الوفير ،ونكَّر (الخمط والأثل والسدر) ؛للتقليل ؛فعوقبوا في المذاق والوفرة.

والتعبير باسم الإشارة للبعيد(ذلك) دلالة على تفخيم المشار إليه ، وهو الجزاء ؛ مما يدل على أن عقابهم في الدنيا شديد ؛ فقد أبدلهم الله–جل علاه– بجنتيهم العامرتين جنتين خراب لما بغوا وجحدوا أنعم الله ، فكانوا كبني إسرائيل الذين اعترضوا على المن والسلوى ،وطلبوا الثوم والبصل بديلا.

---

(١) المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره ؛لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا/ المطول ٦٥٩

(٢) الخمط: ضرب من الآراك له حَمْل يُؤكل ، وكل نبت أخذ طعما من مرارة / الوسيط مادة (خمط)

(٣) بيان المعاني للشيخ عبد القادر بن ملّا العاني ٥٠٥/٣

قوله تعالى: "**وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ**" هل للنفي ؛أي ما نجازي إلا الكفور ،والتأكيد بالنفي والاستثناء يحمل السامعين على الإقرار والإذعان بأن مثل هذا العقاب الشديد لا يكون إلا لمن كفر وبغى واستكبر وطغى ، وجحد نعمة الله تعالى ؛ فلم يوفها حقها ،قال تعالى: "**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**(١)"، ولذا عبر بصيغة المبالغة (كفور) على زنة فعول ؛ لبيان درجة طغيانهم واستكبارهم على الله التي استحقوا بها العقاب، والجملة تذييل مؤكد لمنطوق الجملة السابقة ،وبين (كفروا) و (الكفور) جناس اشتقاق يزين الألفاظ بجرسه ،ويبرز السبب الرئيس الذي أودى بهم إلى المعاناة ،ألا وهو الكفر ؛ليحذر من سولت له نفسه ؛فتعالى واستكبر ،وتوهم الاستغناء بنفسه عن خالقه.

"**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**"

أي؛ جعلنا بينهم وبين القرى المباركة وهي "**قرى الشام وبيت المقدس ، «قُرىً ظاهِرَةً» متواصلة لا تنقطع الواحدة تلو الأخرى، قالوا: كان بين سبأ والشام أربعة آلاف قرية عامرة لا تُقطع الواحدة حتى ترى الأخرى ،«وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ» بحيث جعلنا بين كل قرية وقرية مرحلة صغيرة تُقدر باعتبار مشي الأقدام والإبل بأربعة فراسخ... ،وقلنا لهم: «سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ » من الجوع والعطش والعدوان ؛فبطروا وجحدوا هذه النعم ،وسئموا الراحة التي عزّ طلبها على غيرهم ،ولم يصبروا على السعة والعافية التي يتوق إليها كل مخلوق ؛«فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا» فهو أجدر أن**

(١) سورة القصص جزء آية ٥٩

نشتهيها ونتزود للسفر إليها من الزاد والراحلة ؛فعجَّل الله لهم الإجابة ، «وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بهذا الدعاء وطلب المشقة؛ بطرا ففعلنا بهم ما فعلنا."(١)

استخدم الذكر الحكيم صيغة الماضي في الألفاظ (جعلنا –قدَّرنا– قالوا – ظلموا –جعلناهم –مزَّقناهم) ؛ لتحقق وقوع تلك الأفعال ، فقد حدث أن أنعم الله عليهم ؛بأن جعل لهم قرى قريبة ظاهرة تُجاورهم فيها من الخيرات ما يغنيهم ، لكنهم ظلموا أنفسهم بطلب التعب بديلا للراحة ، فاستجاب الله –عز وجل– لهم معاقبا بأن باعد بين أسفارهم ، وقطَّعهم في الأرض؛ فأمسوا عبرة لمن يعتبر.

ونكَّر لفظة (قرى) ؛للتكثير ،فقد أنعم الله عليهم بكثرة القرى المجاورة قريبة المسلك ؛مما يبين عظيم فضل الله –تعالى– عليهم ؛حيث أنعم عليهم بالأمان والراحة والسكينة بقرب الجوار الطيب.

والأمر في قوله تعالى: "**سِيرُوا**" ؛للإباحة ،أتبعه بالحال (آمنين) يصف به حياتهم الأولى قبل بطرهم وطغيانهم ؛ليوضح الذكر الحكيم أن الطواغي على اختلاف أشكالهم وأنواعهم على مر الأزمان لا يظلمهم الله وإنما أنفسهم يظلمون.

وعطف بالفاء في قوله تعالى: "**فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**" ؛ليبين سرعة طغيانهم وكفرهم بالنعمة ،واستخدم صيغة المفاعلة في لفظة (باعد) ؛ليوضح المشاركة في الفعل ،وكأنهم لما سئموا الراحة بالغوا في طلب المشقة ،حتى

(١) بيان المعاني للشيخ عبد القادر بن ملّا العاني ٥٠٥/٣

وصل بهم البطر إلى طلب المباعدة لأنفسهم وللقرى ؛مبالغة وكأنهم رغبوا التشارك في مباعدة المسلك ؛ليزداد بعدا.

«فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ» لمن بعدهم يتحدثون بشأنهم ،وعبرة يعتبرون بهم وعظة لغيرهم «وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ» بأن فرقناهم، وبدّدناهم في البوادي والقفار، وشتتنا شملهم"(١)

استخدم الذكر الحكيم صيغة (فعَّل) المضعفة في لفظة (مزَّقناهم) ؛للمبالغة في التمزيق ،وبها استعارة تصريحية تبعية ،تبدو بلاغتها في بيان تلك الحالة التي انتهى إليها أمرهم بسبب بطرهم ،وكأن الأمر انتهى بهم إلى التمزيق إربا إربا من بالغ ما آل إليه حالهم من التشتيت في بقاع الأرض ،فقد تفرقوا "**تفريقا اتخذه الناس مثلا مضروبا ...لحق غسان بالشأم ،وأنمار بيثرب ،وجُذام بِتهامة ،والأزد بعُمان**"(٢)

وذيَّل الآية الكريمة بقوله تعالى: "**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**" ؛لأن فاتحة قصة سبأ في بيان فضل الله تعالى عليهم طالبا منهم الإيمان والشكر قال تعالى: "**كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**" ،ولكنهم أعرضوا فلم يصبروا على الإيمان ،ولم يشكروا المنعم على الإحسان ؛فجعل الله –عز وجل– قصتهم مثلا للعظة لكل مؤمن صابر شاكر ،مفخما أمر تلك القصة باستخدام الموصول (ذلك) ؛لأن أمرها جلل ،أمر يجب أن يؤخذ في عين الاعتبار والتدبر ؛فختم قصتهم بقوله تعالى: "**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**" ؛حثا للمؤمنين على الصبر وشكر النعمة ، وأتى بها على صيغة المبالغة (فعَّال) و (فعول) ؛فقال: "**صَبَّارٍ شَكُورٍ**" ؛لبيان بالغ فضل هاتين

(١) بيان المعاني للشيخ عبد القادر بن ملّا العاني ٥٠٥/٣

(٢) الكشاف ٥١٧/٣

الصفتين في المؤمن ،فالمؤمن بين صبر على الضراء ،وشكر في السراء ، كما أخبرنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم في الحديث: "**عجبا لأمر المؤمن ،إن أمره كله خير ،وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛إن أصابته سراء شكر ؛فكان خيرا له ،وإن أصابته ضراء صبر ؛فكان خيرا له**[1] "

الموضع الرابع

ومن ذكر الجنة يراد بها البستان في مقام العقاب قوله تعالى:

"إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ"(٢)

قصة أصحاب الجنة:

"هم قوم ... كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين فكان يأخذ منها قوت سنته، ويتصدق بالباقي ، وكان يترك للمساكين ما أخطأه

---

(١) صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري –كتاب الزهد٤/٢٢٩٥(رقم٢٩٩٩) ط١ دار إحياء الكتب العربية ببيروت –لبنان ١٤١٢هـ ١٩٩١م

(٢) سورة القلم الآيات ١٧: ٣٢

المنجل ،وما في أسفل الأكداس ،وما أخطأه القطاف من العنب ،وما بقي على البساط الذي يُبسط تحت النخلة إذا صُرمت ؛فكان يجتمع لهم شيء كثير ؛ فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال ؛فحلفوا ليصرمنها مصبحين... خفية عن المساكين"(١)

والضمير في (بلوناهم) عائد على كفار مكة، واستهل بالجملة الاسمية "**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ**" المؤكدة بـ(إنَّ) واسمية الجملة ، وخبرها ماض ؛لتحقق وقوع الفعل وهو الابتلاء ؛فهو خبر إنكاري يدفع به إنكار المعترضين والمتشككين ، ومعناه: **"أصبنا أهل مكة ببلية وهي القحط بدعوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عليهم، وقوله: اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف."(٢)**

وبيَّت أصحاب الجنة النية المؤكدة الواضحة في التأكيد بالقسم واللام في لفظ قوله تعالى:"**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**" مما يوضح سوء نيتهم بعزمهم الأكيد على حرمان المساكين.

واستخدم صيغة المضارع في "**وَلَا يَسْتَثْنُونَ**"؛ ليكرر نفي الاستثناء في الحاضر والمستقبل ؛مما يوضح إصرارهم على تنفيذ ما أجمعوا عليه وعدم الرجوع فيه.

والغرض من التشبيه في الآية الكريمة ؛ جعلهم عبرة وعظة لغيرهم ؛ فقد شبَّه الذكر الحكيم حال الكفار من الابتلاء بحال ابتلاء أصحاب الجنة ؛ حيث اختبرهم ؛فأخفقوا وفُتنوا بزينة الدنيا ومتاعها الزائل، ففي الآيات السابقة

(١) الكشاف ٥٠١/٤

(٢) روح المعاني ٢٩/٢٩

ذُكرت الفتنة في قوله تعالى: "**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**"(١) مبينا أنه بالنظر والاعتبار ستنكشف الحقائق وسيعلمون من فُتِن ؛فغوى ، يعقبها ذكر صفات الوليد بن المغيرة المخزومي التي انتهت ببيان فساد عقيدته في قوله تعالى:"**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**"(٢) ؛ فقد اختبر ؛فأخفق وضل ، فَمَثل حال هؤلاء من الاختبار ثم الإخفاق فتنةً بزينة الدنيا وبهجتها ، كحال أصحاب الجنة اختبروا ؛فأخفقوا وضلوا ،ثم ندموا حين لا ينفع الندم.

ووجه الشبه: هيئة الفشل في الابتلاء الناتج عن ترجيح كفة الدنيا وإيثار متاعها على الآخرة وثوابها.

وبلاغة التشبيه تكمن في تنبيه السامعين وإفاقة الغافلين؛ ليأخذوا العبرة والعظة من ذلكم القصص قبل فوات الأوان، قبل أن يعض الظالم على يديه ندما ،ثم لن يغنيه ندمه ،ولن تشفع له حسرته.

وعطف بالفاء (فَطَافَ) ، (فَأَصْبَحَتْ) في قوله تعالى:"**فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**" ؛ليبين سرعة هلاكها عقب ما أضمروه من سوء النية ؛ حيث عجَّل لهم العقاب في الدنيا ، والضمير في (عليها) للجنة ، وتنكير لفظة (طائف) ؛ للتفخيم من أثر فعل ذاك الطائف الذي تركها كالمصرومة لا خير فيها.

(١) سورة القلم الآيات ٥: ٧

(٢) سورة القلم الآية ١٥

وقوله تعالى:"**وَهُمْ نَائِمُونَ**" جملة حالية تبدو بلاغتها في؛ بيان غفلتهم وتصغير قدرهم وإيضاح هوانهم، فبعد قسمهم على صرمها مصبحين؛ لتأكيد حرمان المساكين، أتاهم الطائف من عند الله وهم نائمون غافلون؛ ليستيقظوا على خيبة أملهم وإدراك هوانهم وضعف قدرتهم وتجريدهم من الحول والقوة.

والصريم: ما جُمِع ثمره(١)

"**فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**" تشبيها لها بالمصرومة عديمة الخير، وبلاغة التشبيه تظهر في عنصر المفاجأة التي بغتتهم؛ فأبهتتهم.

"**فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ**"

استخدم الذكر الحكيم صيغة التفاعل في قوله تعالى:" فَتَنَادَوْا"؛ ليوضح التشارك بينهم في القول والنية، واجتماعهم مصبحين على تنفيذ ما أقسموا عليه بالأمس.

"**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ**"

عطف بالفاء في الفعل (أقبل) ؛ ليبين سرعة ندمهم فور رؤيتهم ما حل بالجنة من العذاب فأباد ثمرها ،وهو فعل ماض يوضح تحقق وقوع إقبالهم على بعضهم في حالة من الحسرة أسفا على ما فاتهم من الخير ، بينما استخدم المضارع "**يَتَلَاوَمُونَ**" ؛ليبين تكرار حدوث التلاوم فيما بينهم موردا اللفظة على وزن (التفاعل) ؛ ليوضح التشارك الحاصل فيما بينهم في إلقاء كل منهم اللوم على الآخر ، مما يوضح الحالة الشعورية التي مروا بها

(١) ينظر: الوسيط مادة (صرم)

آنذاك ،فصيغ الألفاظ بدقة توظيفها وانتقاء قوالبها تنقل للمستمع صورة مشاهدة للموقف إثر اطلاعهم على تلك الفاجعة.

ثم إن الآية الكريمة اقتضت سؤالا فحواه: فيم كان تلاومهم؟ وماذا قالوا لبعضهم؟ ومن هنا جاءت الآية الكريمة التالية كجواب عن هذا السؤال المفترض؛ ففُصلت عن سابقتها ؛ لشبه كمال الاتصال قائلا –جل شأنه–: "**قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ**"

عبَّر بالاسم "**طَاغِينَ**"؛ ليوضح اعترافهم بالطغيان الثابت؛ لتجرأهم على حرمان المساكين والعزم الأكيد عليه، وفعل كل ما يمكّنهم من ذلك؛ مما ينقل الحالة النفسية السيئة التي لابستهم في ذاك الحين معترفين بخطئهم غير متملصين منه.

والتعبير بلفظ الربوبية دون لفظ الألوهية في قولهم: "عَسَى رَبُّنَا"؛ إشعار منهم بالانكسار، وإيحاء بالتوبة،ورجاء للمغفرة ،وطمع في عوض الله .

وذيَّل الآية الكريمة بقوله تعالى: "**إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ**" وهي جملة اسمية مؤكدة تؤكد ندمهم ورغبتهم فيما عند الله.

"وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتنى تعبا.

وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيرا منها."(١)

(١) الكشاف ٥٩١/٤

" وروي أنهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله –تعالى– خيرا منها؛ لنصنعن كما صنع أبونا ؛ فدعوا الله –عز وجل – وتضرعوا إليه –سبحانه– فأبدلهم الله –تعالى– من ليلتهم ما هو خير منها."(١)

(١) روح المعاني ٣٢/٢٩

المبحث الرابع

مطابقة المقال لمقتضى الحال في توظيف الدلالات

وردت لفظة الجنة بمعنى البستان بالإفراد والتثنية والجمع في الذكر الحكيم في مقامات شتى، وفي كل ذكر لها وُظِّفت مع أخواتها في النظم بحيث تطابق مقتضى الحال؛ فلكل مقام مقال.

- فبالنظر إلى ذكر لفظة الجنة بمعنى البستان ؛للتذكير بنعم الله –تعالى– أجدها تأتي في الغالب بصيغة الجمع ،ففي سورة الأنعام ٩٩ "**وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ**" وفيها ١٤١"**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ**" ،وفي الرعد٤ "**وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ**" ،وفي (المؤمنون)١٩ "**فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**"، وفي يس ٣٤ "**وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**"،جاءت بصيغة الجمع في أغلب المواضع التي تحث البشر على التدبر في نعم الله –تعالى– ؛للإيمان بالله –عز وجل– وبقدرته على البعث ؛بيانا لكثرتها ؛للتعظيم من فضل الله –تعالى– على عباده ،وحثا لهم على اليقين بأن من خلق تلك الجنات كلها وأحياها من عدم قادر على بدء الخلق ،وعلى بعثه أقدر.

- يلعب الطباق دورا بارزا في المواضع الستة التي سيقت ؛للتذكير بنعم الله –تعالى– ؛ففي سورة البقرة ٢٦٥ "**أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**" ،وفي الأنعام ٩٩ "**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**"، وفيها ١٤١ "**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ**" وفي الرعد٤ "**وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ**"، وفي (المؤمنون)١٨"**وَأَنْزَلْنَا مِنَ**

السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ"، وفي يس٣٣ "**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا**"؛فالطباق يبرز قدرة الله –جل شأنه– على خلق الأضداد ،وعلى فعل الشيء ونقيضه ، وعلى الوجود والعدم ،والسلب والإيجاب ،وتلك الأمور المتضادة والمتناقضة لا يقدر عليها إلا الحق المطلق البارئ المصور –جل علاه–.

- في المواضع الستة التي سيقت لبيان قدرة الله –عز وجل– يُنبه إلى شيء يُعتَبر به ؛ففي سورة البقرة ٢٦٥ "**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**" ،و كأخذ العبرة من شكل النبات بعد اكتمال نضجه في الأنعام ٩٩ "**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**" أو اختلاف أكله في الأنعام ١٤١ "**وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ**" ،أو أخذ العبرة من اختلاف الطعوم رغم السقيا بماء واحد في الرعد ٤ "**يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ**" ،أو أخذ العبرة من إنزال الماء وإسكانه في باطن الأرض بحكمة رغم القدرة على إذهابه وغوره في (المؤمنون) ١٨ "**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**"،أو أخذ العبرة من إحياء الأرض بعدما كانت جدبة ميتا في يس ٣٣ "**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا**".

- تذييل الآيات في المواضع التي سيقت لبيان قدرة الله –عز وجل– يحث على إعمال العقل، والتدبر في آيات الله؛ لشكر الخالق المنعم ؛ففي الأنعام ٩٩ "**إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**" ، وفي الرعد٤

"إِنَّ **فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**" ،وفي (المؤمنون) ١٩ "**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**" ،وفي يس٣٣ "**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**".

- في الموضعين الذين ذُكرت فيهما الجنة بمعنى البستان للتذكير بنعم الله –تعالى– ،حثا على أداء الصدقة أو الزكاة ،أتى أحدهما على طريق الترغيب في الصدقة ؛بجعل من أنفق في سبيل الله تَصدقا كمن حاز جنة بربوة آتت أُكلها في سورة البقرة ٢٦٥ "**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ**" ،بينما أتى الموضع الآخر على طريق الأمر المباشر في الأنعام ١٤١ "**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**" ؛وذلك لأن الموضع الأول للترغيب في الصدقة ،بينما الموضع الآخر في أداء فرض الزكاة من الزروع والثمار على أحد قولين فأتى بفعل الأمر للوجوب.

- وظَّف الذكر الحكيم لفظة (الجنة) بمعنى البستان في مقام تكذيب الكفار لرسلهم توظيفا يليق بأحوال المخاطبين ؛ففي قصة سيدنا نوح –عليه السلام أتى بها على سبيل الترغيب ؛قال تعالى: "**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**"(١) ؛لاستمالة قومه حيث إنهم من أكثر الأمم عنادا ،دامت دعوته فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ،وفي قصتي سيدنا هود وصالح –عليهما السلام– أتى بها على سبيل التحذير قال تعالى: "**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا**

(١) سورة نوح الآيات ١٠: ١٢

تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ"(١) ،وقال تعالى: **"أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ"**(٢) ،وذلك لأنهما من الأمم التي عُرفت بالقوة البدنية ؛تمكنوا في الأرض حتى نحتوا الجبال بيوتا ؛فاستكبروا واستغنوا بقوتهم ؛فحذرهم الذكر الحكيم من فقدان ملكهم وجناتهم العامرة ؛لعلهم يعتبرون ،وفي قصة سيدنا موسى –عليه السلام– سُلِبت الجنة منهم عقابا ،قال تعالى: **"فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ"**(٣)وقال تعالى: **"كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ"**(٤)،فقد سلبها القادر –عزّ شأنه– من فرعون وقومه بإخراجهم من جناتهم ؛وذلك أنه لم يبلغ أحد في الطغيان مثل ما بلغ فرعون ؛فقد ادعى الألوهية ،وقتّل أبناء بني إسرائيل ،واستحيا نساءهم ؛فسلبه الله ما كان له من الجنات وأورثها المستضعفين ، أما ذكرها في قصة سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– ،فقد ذُكرت في ثلاثة مواضع ؛احتج الكفار لعدم إيمانهم في موضعين منهم بأن النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– لا يملك جنة يأكل منها ،قال تعالى: **"وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ**

(١) سورة الشعراء الآيات ١٣٢: ١٣٤

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٤٦: ١٥٠

(٣) سورة الشعراء ٥٧: ٥٩

(٤) سورة الدخان ٢٥: ٢٨

الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا"(١) وقال تعالى: "**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**"(٢)؛وذلك لما عُرِف عنهم من المماطلة ؛فقد قالوا: هو ساحر وشاعر ومجنون في مواضع شتى؛مما يوضح فساد حججهم ،وبطلان تعللهم ،وفي الموضع الثالث أنكروا البعث ؛فضرب الله –عز وجل– بالجنة مثلا ؛حيث يخرج النبات من الأرض فكذلك الخروج ،قال تعالى: :"**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**"(٣).

- المواضع التي ذُكرت فيها الجنة في مقام العقاب كانت اختبارا لأصحابها؛ للنظر كيف يعملون.

- في المواضع التي ابتلوا فيها بالجنة كانت الجنة في أبهى صورها؛ ففي سورة البقرة ٢٦٦"**لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**" ،وفي الكهف ٣٣ "**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا**" ،وفي سبأ ١٥"**جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ**".

- في المواضع التي ابتلوا فيها بالجنة أخفقوا في الابتلاء ؛فحل بهم العقاب بإهلاكها ففي سورة البقرة ٢٦٦ "**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ**

(١) سورة الإسراء ٩٠: ٩١

(٢) سورة الفرقان ٧: ٨

(٣) سورة ق ٩: ١١

فَاحْتَرَقَتْ" ،وفي الكهف "**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ"** ،وفي سبأ "**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ"**،وفي القلم "**فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**".

- الندم هو السمة المشتركة لكل من عصى الله فحلَّ به العقاب ؛ ففي الكهف " **فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**" وفي القلم "**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ**".

الخاتمة

بسم الله افتتحت ، وبسم الله أختم ، وبسم الله في كل وقت وحين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمد بن عبدِ الله الأمين –عليه صلوات الله وملائكته أجمعين– وبعد ،،،

كانت تلك تأملات في كتاب الله حول الآيات التي ذُكرت فيها لفظة الجنة أومشتقاتها بمعنى (البستان)، اهتديت من خلالها لنتائج أذكر منها :

- تنكير لفظة الجنة والجنات هو السمة الغالبة في الآيات الكريمات؛ لتفخيم خلق الله، وبيان قدرته، وعظيم منته على عباده.
- جمع لفظة الجنة هو السمة الغالبة في المواضع التي تحث على التدبر في آيات الله الكونية؛ بيانا لوفرة نعم الله –تعالى– على عباده.
- أظهر الطباق في مواضع شتى القدرة المطلقة لله –عز وجل–؛ حيث يخلق الشيء ونقيضه، ويمنح ويسلب؛ مما يبرز قدرته على إنشاء الخلق من عدم، وعلى البعث والنشر.
- الاعتبار بالنظر إلى كيفية خلق الجنات، وإلى اختلاف أكلها رغم كونها تسقى بماء واحد من الأمور التي نبَّه إليها الذكر الحكيم في المواضع التي سيقت لبيان قدرة الله –عز وجل–؛ تنبيها لذوي الألباب.
- وُظفت لفظة الجنة في المواضع التي كُذِّب فيها الرسل حسب أحوال المخاطبين ودرجاتهم في الكفر والعناد بين إغراء بنعيم الدنيا المتمثل في البساتين لمن آمن واهتدى، أو تحذير من فقدانها لمن

استغنى بقوته واستكبر بغناه ، أو سلبها ممن طغى وتجاوز ببغيه ،واستعلى بسلطانه.

- ضُرِب بإنبات الجنة من الأرض الميتة مثلا للقدرة على إحياء الموتى؛ تنبيها للغافلين المنكرين للبعث؛ فاعتنى الذكر الحكيم بدقائق عملية الإنبات من إنزال الماء من السماء حتى اكتمال نضج الثمار بنظم محكم يبين عن قدرة الله المطلقة، والتي يقاس عليها عملية البعث والنشر لمن يتدبر ويعتبر .
- اقترنت لفظة الجنة بالنخيل والأعناب في أغلب الآيات؛ لأن النفع فيهما أكثر خاصة النخيل.
- تذييل الآيات الكريمات التي ورد فيها ذكر الجنة يحث على التأمل في خلق الله، والإذعان بأنه الواحد الأحد.
- التأكيد بـ(إن) في خواتيم الآيات يدعو المتشككين في قدرة الله تعالى لإعادة النظر والتدبر في آياته الكونية.
- ارتبط ذكر الجنة بمعنى البستان بالتمثيل في كثير من الآيات عن طريق التشبيه التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية، أو ضرب المثل وعظا وتذكيرا.

تباركت ربي أنعمت علينا بكتاب عزيز أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، أودعت في كتابك العزيز من الأسرار ما لا يحيط به إلا اللطيف الخبير ، وما لي سوى الاستعانة بك والتوكل عليك ، فإن كنت قد أحسنت فمن فضلك ونعمتك علي ، وإن لم أكن فعذري أني اجتهدت وما الكمال إلا لك ، بك حولي وقوتي ،ولا حول ولا قوة إلا بك " رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا

إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ".

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان د.ت

٢. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني –تعليق:أبو فهر محمود محمد شاكر ط١ دار المدني بجدة ١٤١٢هـ ١٩٩١م

٣. الأمثال من الكتاب والسنة للإمام محمد بن علي الترمذي –تحقيق: د. السيد الجميلي ط١ دار ابن زيدون–بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

٤. الإيضاح للخطيب القزويني –شرح:عبد المنعم خفاجي ط٣ دار الجيل ببيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

٥. البحر المحيط لأثير الدين أبي حيان ابن يوسف الأندلسي –تحقيق: صدقي محمد جميل ط١دار الفكر ببيروت –لبنان ١٤٣١هـ ٢٠١٠م

٦. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ط١٧ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

٧. البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي وكفاية الراضي –إعداد ودرراسة د. فريد محمد بدوي النكلاوي ط١ مطبعة الأمانة بمصر ١٤٠١هـ ١٩٨١م

٨. بيان المعاني للعلامة عبد القادر ملا العاني ط١ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٨٢هـ ١٩٦٥م

٩. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد للإمام محمد الطاهر بن عاشور التونسي ط١ الدار التونسية للنشر بتونس ١٩٨٤م

١٠. التصوير البياني د.حفني محمد شرف ط١ مكتبة الشباب بالقاهرة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م

١١. تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق : سامي بن محمد السلامة ط٢ دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

١٢. التكرير بين المثير والتأثير د. عز الدين علي السيد ط١ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

١٣. جامع البيان في تأويل القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري – تحقيق: أحمد محمد شاكر ط١ مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م

١٤. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه (صحيح البخاري) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ط١ دار ابن كثير ببيروت –لبنان ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

١٥. الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي – تحقيق: د. فخر الدين قباوة – أ. محمد نديم فاضل ط١ دار الكتب العلمية ببيروت –لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

١٦. الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني –تحقيق: عبد الحميد هنداوي ط١ دار الكتب العلمية ببيروت–لبنان د.ت

١٧. خصائص الحروف العربية ومعانيها د. حسن عباس ط١ اتحاد الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٩٨

١٨. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر ط٣ مطبعة المدني ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي –ضبطه: السيد محمود شكري الألوسي ط١ دار إحياء التراث العربي ببيروت–لبنان د.ت

٢٠. شرح التسهيل لابن مالك جمال الدين الأندلسي –تحقيق: د.عبد الرحمن السيد –د.محمد بدوي المختون ط١ هجر للطباعة والنشر ١٩٩٠

٢١. صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ط١ دار إحياء الكتب العربية ببيروت –لبنان ١٤١٢هـ ١٩٩١م

٢٢. الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال الحسن ابن سهل العسكري –تحقيق: علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم ط١ المكتبة العصرية صيدا ببيروت ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

٢٣. الكتاب لأبي عمرو بشر بن عثمان (سيبويه)– تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط٣مكتبة الخانجي –القاهرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٢٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري –راجعه: يوسف الحمادي ط١ مكتبة مصر ١٤٣١هـ ٢٠١٠م

٢٥. لسان العرب لابن منظور ط١ دار المعارف بالقاهرة د.ت

٢٦. مختصر تاج العروس للزبيدي –تقديم: سمر إبراهيم ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٤م

٢٧. المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني –صححه: أحمد عزو عناية ط١ دار إحياء التراث العربي ببيروت –لبنان ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م

٢٨. معان النحو د. فاضل صالح السامرائي ط١دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠

٢٩. معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس – تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط١ دار الفكر للطباعة والنشر د.ت

٣٠. الوسيط – قام بإخراجه / إبراهيم أنيس – عبد الحليم منتصر – عطية الصوالحي – محمد خلف الله ط٢ دار المعارف ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

فهرس الموضوعات

العنوان
المقدمة
التمهيد
المبحث الأول: ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام التذكير بنعم الله –عز وجل–.
المبحث الثاني : ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام تكذيب المشركين للرسل –عليهم السلام–.
المبحث الثالث : ذكر جنة الدنيا (البستان) في مقام العقاب.
المبحث الرابع: مطابقة المقال لمقتضى الحال في توظيف الدلالات.
الخاتمة
فهرس المصادر والمراجع